الثقافة الاسلامية

جمال شاهين

مذكرات في ...

مباحث في النية

الاعتقاد والعقل

حقيقة الشرك والمعاصي

مراتب الجهاد لابن القيم

منكرات العيد

منشورات المكتبة الخاصة ٢٠٢٣

منشورات ٢٠٢٣/ ١٤٤٤
المكتبة الخاصة

جمال شاهين

مباحث في النية
الاعتقاد والعقل
حقيقة الشرك والمعاصي
مراتب الجهاد
منكرات العيد

جمال شاهين

مذكرة في

مباحث في النية

من كتاب فتح الباري لابن حجر ومن الموسوعة الفقهية الكويتية

الأعمال بالنيات

قال عُمر بْن الْخطّاب ﷺ على الْمنْبر قال سمعْتُ رسُول الله ﷺ يقُولُ إنّما الْأعْمالُ بالنّيّات وإنّما لكُلّ امْرئٍ ما نوى فمنْ كانتْ هجْرتُهُ إلى دُنْيا يُصيبُها أوْ إلى امْرأةٍ ينْكحُها فهجْرتُهُ إلى ما هاجر إليْه. البخاري

■ وقدْ تواتر النّقْل عنْ الْأئمّة في تعْظيم قدْر هذا الْحديث : قال أبُو عبْد الله : ليْس في أخْبار النّبيّ ﷺ شيْء أجْمع وأغْنى وأكْثر فائدة منْ هذا الْحديث .

ثلث الإسلام والعلم

■ واتّفق عبْد الرّحْمن بْن مهْديّ والشّافعيّ فيما نقلهُ الْبُويْطيّ عنْهُ وأحْمد بْن حنْبل وعليّ بْن الْمدينيّ وأبُو داوُد والتّرْمذيّ والدّارقُطْنيّ وحمْزة الْكنانيّ على أنّهُ ثُلُث الْإسْلام ، ومنْهُمْ منْ قال رُبْعه ، واخْتلفُوا في تعْيين الْباقي .

■ ووجّه الْبيْهقيُّ كوْنه ثُلُث الْعلْم بأنّ كسْب الْعبْد يقع بقلْبه ولسانه وجوارحه ، فالنّيّة أحد أقْسامها الثّلاثة وأرْجحها ؛ لأنّها قدْ تكُون عبادة مُسْتقلّة وغيْرها يحْتاج إليْها ، ومنْ ثمّ ورد : نيّة الْمُؤْمن خيْر منْ عمله ، فإذا نظرْت إليْها كانتْ خيْر الْأمْريْن .

■ وكلام الْإمام أحْمد يدُلّ على أنّهُ بكوْنه ثُلُث الْعلْم أنّهُ أراد أحد الْقواعد الثّلاثة الّتي تُردّ إليْها جميع الْأحْكام عنْده ، وهي هذا و " منْ عمل عملًا ليْس عليْه أمْرنا فهُو ردّ " و " الْحلال بيّن والْحرام بيّن " الْحديث .

■ واسْتُدلّ بهذا الْحديث على أنّهُ لا يجُوز الْإقْدام على الْعمل قبْل معْرفة الْحُكْم ؛ لأنّ فيه أنّ الْعمل يكُون مُنْتفيًا إذا خلا عنْ النّيّة ، ولا يصحّ نيّة فعْل الشّيْء إلّا بعْد معْرفة الْحُكْم ، وعلى أنّ الْغافل لا تكْليف عليْه ؛ لأنّ الْقصْد يسْتلْزم الْعلْم بالْمقْصُود والْغافل غيْر قاصد

القصد من النية

■ النّيّة إنّما تُميّز الْعمل لله عنْ الْعمل لغيْره رياء ، وتُميّز مراتب الْأعْمال كالْفرْض عنْ النّدْب ، وتُميّز الْعبادة عنْ الْعادة كالصّوْم عنْ الْحمْية . محلّ النّيّة الْقلْب .

المراد بالعمل

■ المُراد بالْأعْمال أعْمال الْعبادة وهي لا تصحّ منْ الْكافر وإنْ كان مُخاطبًا بها مُعاقبًا على ترْكها واخْتلف الْفُقهاء هلْ هي رُكْن أوْ شرْط ؟ والمُرجّح أنّ إيجادها ذكْرًا في أوّل الْعمل رُكْن ، واسْتصْحابها حُكْمًا بمعْنى أنْ لا يأْتي بمُنافٍ شرْعًا شرْطٌ .

مفهوم النية

■ وقال الْبيْضاويّ : النّيّة عبارة عنْ انْبعاث الْقلْب نحْو ما يراهُ مُوافقًا لغرضٍ منْ جلْب نفْع أوْ دفْع ضُرّ حالًا أوْ مآلًا ، والشّرْع خصّصهُ بالْإرادة المُتوجّهة نحْو الْفعْل لابْتغاء رضاء الله وامْتثال حُكْمه.

قال النّوويّ : النّيّة الْقصْد ، وهي عزيمة الْقلْب .

وقال ابْن دقيق الْعيد : الّذين اشْترطُوا النّيّة قدّرُوا صحّة الْأعْمال ، والّذين لمْ يشْترطُوها قدّرُوا كمال الْأعْمال ، ورُجّح الْأوّل بأنّ الصّحّة أكْثر لُزُومًا للْحقيقة منْ الْكمال فالْحمْل عليْها أوْلى . وليْس الْخلاف بيْنهمْ في ذلك إلّا في الْوسائل ، وأمّا الْمقاصد فلا اخْتلاف بيْنهمْ في اشْتراط النّيّة لها

(وإنّما لكُلّ امْرئٍ ما نوى)

■ قال الْقُرْطُبيّ : فيه تحْقيق لاشْتراط النّيّة والْإخْلاص في الْأعْمال ، فجنح إلى أنّها مُؤكّدة .

■ وقال ابْن دقيق الْعيد : الْجُمْلة الثّانية تقْتضي أنّ منْ نوى شيْئًا يحْصُل لهُ – يعْني إذا عملهُ بشرائطه – أوْ حال دُون عمله لهُ ما يُعْذر شرْعًا بعدم عمله وكُلّ ما لمْ ينْوه لمْ يحْصُل لهُ .

■ وقدْ يحْصُل غيْر الْمنويّ لمُدْركٍ آخر كمنْ دخل الْمسْجد فصلّى الْفرْض أوْ الرّاتبة قبْل أنْ يقْعُد فإنّهُ يحْصُل لهُ تحيّة الْمسْجد نواها أوْ لمْ ينْوها ؛ لأنّ الْقصْد بالتّحيّة شغْل الْبُقْعة وقدْ حصل ، وهذا بخلاف منْ اغْتسل يوْم الْجُمُعة عنْ الْجنابة فإنّهُ لا يحْصُل لهُ غُسْل الْجُمُعة على الرّاجح ؛ لأنّ غُسْل الْجُمُعة يُنْظر فيه إلى التّعبُّد لا إلى محْض التّنْظيم فلا بُدّ فيه منْ الْقصْد إليْه ، بخلاف تحيّة الْمسْجد والله أعْلم

■ وقال ابْن السّمْعانيّ في أماليه : أفادتْ أنّ الْأعْمال الْخارجة عنْ الْعبادة لا تُفيد الثّواب إلّا إذا نوى بها فاعلها الْقُرْبة ، كالْأكْل إذا نوى به الْقُوّة على الطّاعة .

■ وقال ابْن عبْد السّلام : الْجُمْلة الْأُولى لبيان ما يُعْتبر منْ الْأعْمال ، والثّانية لبيان ما يترتّب عليْها وأفاد أنّ النّيّة إنّما تُشْترط في الْعبادة الّتي لا تتميّز بنفْسها ، وأمّا ما يتميّز بنفْسه فإنّهُ ينْصرف بصُورته إلى ما وُضع لهُ كالْأذْكار والْأدْعية والتّلاوة لأنّها لا تتردّد بيْن الْعبادة والْعادة .

الهجرة

■ الْهجْرة : التّرْك ، والْهجْرة إلى الشّيْء : الانْتقال إليْه عنْ غيْره . وفي الشّرْع : ترْك ما نهى اللهّ عنْهُ وقدْ وقعتْ في الْإسْلام على وجْهيْن : الْأوّل الانْتقال منْ دار الْخوْف إلى دار الْأمْن كما في هجْرتيْ الْحبشة وابْتداء الْهجْرة منْ مكّة إلى الْمدينة ، الثّاني الْهجْرة منْ دار الْكُفْر إلى دار الْإيمان وذلك بعْد أنْ اسْتقرّ النّبيّ ﷺ بالْمدينة وهاجر إليْه منْ أمْكنهُ ذلك منْ الْمُسْلمين .

(إلى دُنْيا)

■ بضمّ الدّال ، وحكى ابْن قُتيْبة كسْرها ، وهي فُعْلى منْ الدُّنُوّ أيْ : الْقُرْب ، سُمّيتْ بذلك لسبْقها للْأُخْرى . وقيل : سُمّيتْ دُنْيا لدُنُوّها إلى الزّوال .

مباحث في النية

■ تعريف الاحناف:

والنّيّةُ اصْطلاحًا : تعْريفُ الْحنفيّة بأنّها قصْدُ الطّاعة والتّقرُّب إلى اللهّ تعالى في إيجاب الْفعْل . ودخل في التّعْريف الْمنْهيّاتُ ، فإنّ الْمُكلّف به الْفعْل الّذي هُو كفُّ النّفْس .

■ وعرّفها الْمالكيّةُ :

بأنّها قصْدُ الْإنْسان بقلْبه ما يُريدُهُ بفعْله ، فهي منْ باب الْعُزُوم والْإرادات لا منْ باب الْعُلُوم والاعْتقادات .

■ وعرّفها الشّافعيّةُ:

بأنّها قصْدُ الشّيْء مُقْترنًا بفعْله .

■ وعرّفها الْحنابلةُ :

بأنّها عزْمُ الْقلْب على فعْل الْعبادة تقرُّبًا إلى الله تعالى ، بأنْ يقْصد بعمله الله تعالى دُون شيْءٍ آخر منْ تصنُّعٍ لمخْلُوقٍ ، أو اكْتساب محْمدةٍ عنْد النّاس ، أوْ محبّة مدْحٍ منْهُمْ ، أوْ نحْوه.

أحكام عامة

أوّلاً : الأحْكامُ الشّرْعيّةُ الْعامّةُ للنّيّة :

■ ما يفْتقرُ إلى النّيّة من الأعْمال وما لا يفْتقرُ :

أعْمال الْمُكلّفين إمّا مطْلُوبةٌ أوْ مُباحةٌ

■ ولمّا كان الْمُباحُ لا يُتقرّبُ به إلى الله تعالى فلا يفْتقرُ إلى النّيّة إلاّ إذا قصد الْمُكلّفُ الثّواب عليْه فإنّهُ يفْتقرُ إلى النّيّة .

والْمطْلُوبُ من الأعْمال إمّا مطْلُوبةُ التّرْك أوْ مطْلُوبةُ الْفعْل

■ فالْمطْلُوبةُ التّرْك - وهي النّواهي - فإنّ الإنْسان يخْرُجُ عنْ عُهْدتها وإنْ لمْ يشْعُرْ بها ، فضْلاً عن الْقصْد إليْها ، ومنْ ثمّ فلا تفْتقرُ إلى النّيّة ، إلاّ إذا شعر الْمُكلّفُ بالْمنْهيّ عنْهُ ونوى ترْكهُ لله تعالى ، فإنّهُ يحْصُل لهُ مع الْخُرُوج عن الْعُهْدة الثّوابُ لأجْل النّيّة ، ومنْ ثمّ فالنّيّةُ شرْطٌ في الثّواب لا في الْخُرُوج عن الْعُهْدة .

■ والْمطْلُوبةُ الْفعْل - وهي الأوامرُ - فهي على قسْميْن منْ حيْثُ افْتقارُها إلى النّيّة :

الْقسْمُ الأوّل : ما تكُونُ صُورةُ فعْله كافيةً في تحْصيل مصْلحته ، كأداء الدّيْن والْودائع والْغُصُوب ونفقات الزّوْجات والأقارب ، فإنّ الْمُحصّلة الْمقْصُودة منْ هذه الأُمُور انْتفاعُ أرْبابها وهي تتحقّقُ بمُجرّد امْتثال الأمْر ، ولا تتوقّفُ على قصْد الْفاعل لها ، فيخْرُجُ الإنْسانُ عنْ عُهْدتها وإنْ لمْ ينْوها .

الْقسْمُ الثّاني : ما تكُونُ صُورةُ فعْله ليْستْ كافيةً في تحْصيل مصْلحته الْمقْصُودة منْهُ ، كالصّلوات والطّهارات والصّيام والنُّسُك ، فإنّ الْمقْصُود منْها تعْظيمُهُ تعالى بفعْلها والْخُضُوع لهُ في إتْيانها ، وذلك إنّما يحْصُل إذا قُصدتْ منْ أجْله سُبْحانهُ وتعالى .

فهذا الْقسْمُ هُو الّذي أمر فيه الشّرْعُ بالنّيّات وهذا في الْجُمْلة .

وللْفُقهاء تفْصيلٌ في افْتقار الْعبادات والْعُقُود إلى النّيّة ، بيانُهُ فيما يلي :

أ – افْتقارُ الْعبادات إلى النّيّة :

■ الْعبادةُ إذا كانتْ غيْر مُلْتبسةٍ بالْعادة ولا بغيْرها من الْعبادات ، كالْإيمان بالله تعالى والْمعْرفة والْخوْف والرّجاء وقراءة الْقُرْآن وسائر الْأذْكار وأمْثال ذلك ، فإنّها لا تفْتقرُ إلى النّيّة ، لأنّها مُتميّزةٌ لله تعالى بصُورتها ، ولا تلْتبسُ بغيْرها .

■ وإنْ كانت الْعبادةُ تلْتبسُ بالْعادة أوْ بغيْرها من الْعبادات ، كالْغُسْل والصّلاة والصّيام والضّحايا والصّدقة والنُّذُور والْكفّارات والْجهاد والْعتْق ؛ فإنّها تفْتقرُ إلى النّيّة .

ب – افْتقارُ الْعُقُود إلى نيّةٍ :

■ الْعقْدُ إذا كان يسْتقل به الشّخْصُ كالطّلاق والْعتاق والْإبْراء والْوقْف والْوصيّة والرّجْعة والظّهار والْفُسُوخ ، فإنّ انْعقادهُ بالْكناية يفْتقرُ إلى النّيّة ، ولا يفْتقرُ إليْها في انْعقاده باللّفْظ الصّريح .

■ وإنْ كان الْعقْدُ لا يسْتقل به الشّخْصُ ، بأنْ كان يحْتاجُ إلى إيجابٍ وقبُولٍ فهُو ضرْبان :

الأوّل : ما يُشْترطُ فيه الْإشْهادُ كالنّكاح وبيْع الْوكيل الْمشْرُوط فيه الْإشْهادُ ، فهذا لا ينْعقدُ بالْكناية مع النّيّة لأنّ الشّاهد لا يعْلمُ النّيّة .

الثّاني : ما لا يُشْترطُ فيه الْإشْهادُ ، وهُو نوْعان :

النّوْعُ الأوّل : ما يقْبل مقْصُودُهُ التّعْليق بالْغرر كالْكتابة والْخُلْع فإنّهُ ينْعقدُ بالْكناية مع النّيّة .

النّوْعُ الثّاني : ما لا يقْبل التّعْليق بالْغرر كالْبيْع والْإجارة وغيْرهما ، فإنّهُ ينْعقدُ بالْكناية مع النّيّة على أصحّ الْوجْهيْن عنْد الشّافعيّة .

حُكْمُ النّيّة فيما يفْتقرُ إليْها

■ اخْتلف الْفُقهاءُ في حُكْم النّيّة في الْعبادات هل هي فرْضٌ أوْ رُكْنٌ أوْ شرْطٌ ؟

■ فيرى جُمْهُورُ الْفُقهاء : الْحنفيّةُ والْمالكيّةُ على الأظْهر – كما قال صاحبُ الطّراز – ورأْيٌ عنْد

الشّافعيّة مُقابل الأكْثر ، والحنابلةُ : أنّ النيّة شرْطٌ في العبادات .

■ ويرى أكْثرُ الشّافعيّة أنّها رُكْنٌ فيها . وفي قوْلٍ عنْد المالكيّة أنّها فرْضٌ في الْوُضُوء .

فضيلةُ النّيّة

■ النّيّةُ هي محطُّ نظر الله تعالى من الْعبْد ، قال النّبيُّ ﷺ : إنّ الله لا ينْظُرُ إلى صُوركُمْ وأمْوالكُمْ ولكنْ ينْظُرُ إلى قُلُوبكُمْ وأعْمالكُمْ ، وإنّما نظر إلى القُلُوب لأنّها مظنّةُ النّيّة ، وهذا هُو سرُّ اهْتمام الشّارع بالنّيّة فأناط قبُول الْعمل وردّهُ وترْتيب الثّواب والْعقاب بالنّيّة ، ويظْهرُ أثرُ ذلك فيما يلي

■ أ – قال الْغزاليُّ : إنّ المرْء يُشْركُ في محاسن الْعمل ومساويه بالنّيّة ، واسْتشْهد بحديث أنس بْن مالكٍ – ﷺ – قال : لمّا خرج رسُول الله ﷺ في غزْوة تبُوك قال : " إنّ بالْمدينة أقْوامًا خلْفنا ، ما سلكْنا شعْبًا ولا واديًا إلاّ وهُمْ معنا فيه ، حبسهُمُ الْعُذْرُ ، وبحديث أبي بكْرة ﷺ أنّهُ قال : سمعْتُ رسُول الله ﷺ يقُول : إذا الْتقى المُسْلمان بسيْفيْهما فالْقاتل والْمقْتُول في النّار . فقُلْتُ : يا رسُول الله هذا الْقاتل فما بال الْمقْتُول ؟ قال : إنّهُ كان حريصًا على قتْل صاحبه .

■ ب – إنّ الْهمّ بفعْل الحسنة حسنةٌ في ذاته ، يدُل على ذلك قوْل النّبيّ ﷺ : منْ همّ بحسنةٍ فلمْ يعْملْها كُتبتْ لهُ حسنةٌ ، فالنّيّةُ في نفْسها خيْرٌ وإنْ تعذّر الْعمل بعائقٍ .

■ وممّا يتفرّعُ على ذلك ما نقلهُ السُّيُوطيُّ منْ أنّ الْمُنْقطع عن الجماعة لعُذْرٍ منْ أعْذارها – إذا كانتْ نيّتُهُ حُضُورها لوْلا الْعُذْرُ – يحْصُل لهُ ثوابُها.

■ ج – إنّ النّيّة تُعظّمُ الْعمل وتُصغّرُهُ ، فقدْ ورد عنْ بعْض السّلف : رُبّ عملٍ صغيرٍ تُعظّمُهُ النّيّةُ ، ورُبّ عملٍ كبيرٍ تُصغّرُهُ النّيّةُ ، لقوْل النّبيّ ﷺ : نيّةُ الْمُؤْمن خيْرٌ منْ عمله .

■ د – إنّ الله تعالى يُعينُ الْعبْد ويُوفّقُهُ للْعمل على قدْر نيّته ، فقدْ كتب سالمُ بْنُ عبْد الله إلى عُمر بْن عبْد الْعزيز : اعْلمْ أنّ عوْن الله تعالى للْعبْد على قدْر النّيّة ، فمنْ تمّتْ نيّتُهُ تمّ عوْنُ الله لهُ ، وإنْ نقصتْ نقص بقدْره .

■ هـ – قال الْغزاليُّ : عمادُ الأعْمال النّيّاتُ ، قال النّبيُّ ﷺ : إنّما الأعْمال بالنّيّات ، فالمرْءُ يُتقبّل منْهُ عملُهُ ويُثابُ عليْه أوْ يُردُّ عملُهُ ويُعاقبُ عليْه بحسب نيّته .

كما جاء في حديث أبي هُريْرة – ﷺ – : منْ تزوّج امْرأةً على صداقٍ وهُو ينْوي أنْ لا يُؤدّيهُ إليْها فهُو زانٍ ، ومن ادّان ديْنًا وهُو ينْوي أنْ لا يُؤدّيهُ إلى صاحبه – أحْسبُهُ قال – : فهُو سارقٌ .

■ ز – إنّ النّيّة تقْلبُ المُباحات إلى واجباتٍ ومنْدُوباتٍ لينال النّاوي عليْها الثّواب بنيّته .

ومثال ذلك أنّ لُبْس الثّياب هُو مُباحٌ ، فإذا أراد الشّخْصُ أنْ يُحوّل هذا المُباح إلى واجبٍ نوى بلُبْسه الثّياب ستْر الْعوْرة ، وذلك واجبٌ . فإنْ كان الثّوْبُ ممّا يُتزيّنُ به فإنّهُ يضُمُّ إلى نيّة الْواجب امْتثال السُّنّة في إظْهار نعم الله تعالى ، لقوْله ﷺ : إنّ الله يُحبُّ أنْ يرى أثر نعْمته على عبْده ، فينْوي بذلك مُبادرتهُ إلى ما يُحبُّهُ اللهُ منْهُ ، وإنْ كان الثّوْبُ ممّا لا يُتزيّنُ به فينْوي بلُبْسه التّواضُع لله تعالى والانْكسار والتّذلُّل بيْن يديْه وإظْهار الْحاجة والْمسْكنة والْفقْر إليْه ، وامْتثال السُّنّة لقوْله ﷺ : منْ ترك اللّباس تواضُعًا لله – وهُو يُقْدرُ عليْه – دعاهُ اللهُ يوْم الْقيامة على رُؤُوس الْخلائق حتّى يُخيّرهُ منْ أيّ حُلل الْإيمان شاء يلْبسُها .

ثوابُ النّيّة وحْدها ، ومع الْعمل

■ ناوي الْقُرْبة يُثابُ على مُجرّد نيّته منْ غيْر الْعمل ، ولا يُثابُ على أكْثر الأعْمال إلاّ إذا نوى ؛ لأنّ النّيّة مُنْصرفةٌ بنفْسها وصُورتها إلى الله تعالى ، ولذلك يُثابُ عليْها وحْدها ، وأمّا الْفعْل المُجرّدُ عن النّيّة فإنّهُ مُتردّدٌ بيْن ما هُو لله تعالى وما هُو لغيْره ، أيْ بيْن الْعادة والْعبادة ، فهُو غيْرُ مُنْصرفٍ بنفْسه وصُورته إلى الله تعالى ، ولذلك لا يُثابُ عليْه .

■ وقال الْفُقهاءُ : يُسنُّ نيّةُ قيام اللّيْل عنْد النّوْم ليفُوز بقوْله ﷺ : منْ أتى فراشهُ وهُو ينْوي أنْ يقُوم من اللّيْل فغلبتْهُ عيْناهُ حتّى أصْبح كُتب لهُ ما نوى ، وكان نوْمُهُ عليْه صدقةً منْ ربّه ﷻ . النسائي

■ وقالُوا : إنّ الْمرْء يُثابُ على نيّته وحْدها حسنةً واحدةً ، فإن اتّصل بها الْفعْل أُثيب بعشْر حسناتٍ ؛ لأنّ الْفعْل الْمنْويّ تتحقّقُ به الْمصالحُ الْمطْلُوبةُ من الْعبادات ، فلذلك كان أجْرُهُ – أيْ مع النّيّة – أعْظم وثوابُهُ أوْفر ، ولأنّ الأفْعال هي الْمقاصدُ والنّيّات وسائل .

محل النّيّة

■ ذهب الْحنفيّةُ والشّافعيّةُ والْحنابلةُ وهُو قوْل مالكٍ وأكْثر فُقهاء الْمالكيّة إلى أنّ محل النّيّة من الْمُكلّف الْقلْبُ في كُل موْضعٍ ؛ لأنّهُ محل الْعقْل والْعلْم والْميْل والنُّفْرة والاعْتقاد ، ولأنّ حقيقتها الْقصْدُ ، ومحل الْقصْد الْقلْبُ ، ولأنّها منْ عمل الْقلْب .

■ واسْتدلُّوا بقوْل الله عزّ وجل : { وما أُمرُوا إلاّ ليعْبُدُوا الله مُخْلصين لهُ الدّين } والإْخْلاصُ عمل الْقلْب ، وهُو محْضُ النّيّة ، وذلك بأنْ يقْصد بعمله أنّهُ لله تعالى وحْدهُ ، وقوْل الله تعالى : { أفلمْ يسيرُوا في الأْرْض فتكُون لهُمْ قُلُوبٌ يعْقلُون بها } ، وقوْله سُبْحانهُ : { ما كذب الْفُؤادُ ما رأى } ، وقوْلهﷻ : { أُولئك كتب في قُلُوبهمُ الإْيمان } ، وقوْله جل جلالُهُ : { ختم اللهُ على قُلُوبهمْ } ولمْ يُضف اللهُ شيْئًا منْ هذه الأْمُور إلى الدّماغ .

■وعنْد الْمالكيّة خلافٌ فصّلهُ الْحطّابُ، قال الْقرافيُّ : وإذا تقرّر أنّ الْعقْل في الْقلْب لزم أنّ النّفْس في الْقلْب ، عملاً بظاهر النُّصُوص ، وإذا كانت النّفْسُ في الْقلْب كانت النّيّةُ وأنْواعُ الْعُلُوم وجميعُ أحْوال النّفْس في الْقلْب .

التّلفُّظُ بالنّيّة

■ يترتّبُ على رأْي الْجُمْهُور بأنّ محل النّيّة الْقلْبُ ، أمْران :

الأْوّل : لا يكْفي اللّفْظُ باللّسان دُون الْقلْب ، فلو اخْتلف اللّسانُ والْقلْبُ فالْعبْرةُ بما في الْقلْب فلوْ نوى بقلْبه الظُّهْر وبلسانه الْعصْر ، أوْ بقلْبه الْحجّ وبلسانه الْعُمْرة أوْ عكْسهُ ، صحّ لهُ ما في الْقلْب .

قال الدّرْديرُ : إنْ خالف لفْظُهُ نيّتهُ فالْعبْرةُ النّيّةُ بالْقلْب لا اللّفْظُ ، إنْ وقع سهوا ، وأمّا عمْدًا فمُتلاعبٌ تبْطُل صلاتُهُ .

الثّاني : أنّهُ لا يُشْترطُ مع نيّة الْقلْب التّلفُّظُ في جميع الْعبادات .

■ ثُمّ إنّ الْفُقهاء اخْتلفُوا في الْحُكْم التّكْليفيّ للتّلفُّظ بالنّيّة :

فذهب الْحنفيّةُ في الْمُخْتار والشّافعيّةُ والْحنابلةُ في الْمذْهب إلى أنّ التّلفُّظ بالنّيّة في الْعبادات سُنّةٌ

ليُوافق اللّسانُ الْقلْب .

■ وذهب بعْضُ الْحنفيّة وبعْضُ الْحنابلة إلى أنّ التّلفُّظ بالنّيّة مكْرُوهٌ .

■ وقال الْمالكيّةُ بجواز التّلفُّظ بالنّيّة في الْعبادات ، والأوْلى ترْكُهُ ، إلاّ الْموسْوس فيُسْتحبُّ لهُ التّلفُّظُ ليذْهب عنْهُ اللّبْسُ .

شُرُوطُ النّيّة

■ اشْترط جُمْهُورُ الْفُقهاء – الْحنفيّةُ والشّافعيّةُ والْحنابلةُ – للنّيّة ما يلي :

أ – الإسْلامُ ، فلا تصحُّ الْعباداتُ من الْكافر .

ب – التّمْييزُ ، فلا تصحُّ عبادةُ صبيٍّ غيْر مُميّزٍ ولا مجْنُونٍ .

جـ – الْعلْمُ بالْمنْويّ ، فمنْ جهل فريضة الصّلاة لمْ تصحّ منْهُ ، واسْتثْنى الْعُلماءُ منْ ذلك الْحجّ فإنّهُمْ صحّحُوا الإحْرام الْمُبْهم ؛ لأنّ عليًّا أحْرم بما أحْرم به النّبيُّ ﷺ. حديث : " أهل بما أهل به النبي ﷺ . . . " . أخرجه البخاري

د – أنْ لا يأْتي بمُنافٍ بيْن النّيّة والْمنْويّ ، فلو ارْتدّ النّاوي في أثْناء الصّلاة أو الصّوْم أوْ الْحجّ بطل

■ ومن الْمُنافي نيّةُ الْقطْع ، فلوْ نوى قطْع الإيمان صار مُرْتدًّا في الْحال .

واخْتلفُوا في أثر نيّة الْقطْع على الْعبادات ، فذهب الْحنفيّةُ إلى أنّ نيّة الْقطْع لا تُبْطل الْعبادات .

■ وذهب الْمالكيّةُ إلى أنّ قطْع النّيّة في أثْناء الْعبادة يُبْطل الصّلاة والصّوْم ، وكذا يُبْطل الْوُضُوء والتّيمُّم والاعْتكاف عنْد بعْضهمْ ، ولا يُبْطل قطْعُ النّيّة الْحجّ والْعُمْرة .

■ وذهب الشّافعيّةُ إلى أنّ نيّة الْقطْع تُبْطل الصّلاة دُون الصّوْم والاعْتكاف والْحجّ والْعُمْرة .

■ وذهب الْحنابلةُ إلى أنّ قطْع النّيّة أثْناء الصّلاة والصّوْم والْوُضُوء ونحْوها يُبْطلُها ؛ لأنّ اسْتصْحاب حُكْم النّيّة شرْطٌ في صحّتها .

■ ومن الْمُنافي التّردُّدُ وعدمُ الْجزْم في أصْل النّيّة ، فلوْ نوى يوْم الشّكّ إنْ كان منْ شعْبان ليْس بصائمٍ ، وإنْ كان منْ رمضان كان صائمًا لمْ تصحّ نيّتُهُ .

■ قال السُّيُوطيُّ : ومن الْمُنافي : عدمُ الْقُدْرة على الْمنْويّ إمّا عقْلاً وإمّا شرْعًا وإمّا عادةً

فمن الأوّل : نوى بوُضُوئه أنْ يُصلّي صلاةً وأنْ لا يُصلّيها ، لمْ تصحّ لتناقُضها .

ومن الثّاني : نوى به الصّلاة في مكانٍ نجسٍ ، قال في شرْح المُهذّب عن الْبحْر : ينْبغي أنْ لا يصحّ

ومن الثّالث : نوى به صلاة الْعيد وهُو في أوّل السّنة ، أو الطّواف وهُو بالشّام ، ففي صحّته خلافٌ .

هـ – أنْ تكُون النّيّةُ مُنجّزةً ، فلا تصحُّ أنْ تكُون مُعلّقةً ، فلوْ قال : إنْ شاء اللهُ تعالى ، فإنْ قصد التّعْليق أوْ أطْلق ، قال الشّافعيّةُ : لمْ تصحّ .

وإنْ قصد التّبرُّك صحّتْ .

■ ويرى الْحنفيّةُ أنّهُ لوْ عقّب النّيّة بالْمشيئة فيُنْظرُ : إنْ كان ممّا يتعلّقُ بالنّيّات كالصّوْم والصّلاة لمْ تبْطُل . وإنْ كان ممّا يتعلّقُ بالأقْوال كالطّلاق والْعتاق بطُل .

واشْترط الْمالكيّةُ للنّيّة ثلاثة شُرُوطٍ ، هي :

■ أ – أنْ يتعلّق بمُكْتسب النّاوي ، فإنّها مُخصّصةٌ ، وتخْصيصُ غيْر الْمعْقُول للْمُخصّص مُحالٌ .

■ ب – أنْ يكُون الْمنويُّ معْلُوم الْوُجُوب أوْ مظْنُونهُ ، فإنّ الْمشْكُوك تكُونُ فيه النّيّةُ مُتردّدةً فلا تنْعقدُ ، ولذلك لا يصحُّ وُضُوءُ الْكافر ولا غُسْلُهُ قبْل انْعقاد الإسْلام ؛ لأنّهُما غيْرُ معْلُوميْن ولا مظْنُونيْن .

■ ج – أنْ تكُون النّيّةُ مُقارنةً للْمنويّ ؛ لأنّ أوّل الْعبادة لوْ عرا عن النّيّة لكان أوّلُها مُتردّدًا بيْن الْقُرْبة وغيْرها ، وآخرُ الصّلاة مبْنيٌّ على أوّلها وتبعٌ لهُ ، بدليل أنّ أوّلها إنْ نوى نفْلاً أوْ واجبًا أوْ قضاءً أوْ أداءً كان آخرُها كذلك ، فلا تصحّ .

وقْتُ النّيّة

■ ذهب الْفُقهاءُ إلى أنّ وقْت النّيّة هُو أوّل الْعبادات ، أوْ أنّ الأصْل أنّ أوّل وقْتها أوّل الْعبادات فيجبُ – كما عبّر بعْضُهُمْ – أنْ تقْترن النّيّةُ بأوّل كُل عبادةٍ إلاّ أنْ يشُقّ مُقارنتُها إيّاها .

■ واسْتثْنوْا منْ ذلك صُورًا من الْعبادات خرجتْ عنْ هذا الأصْل ، وأضافُوا أحْكامًا تتعلّقُ بالأوّل الْحقيقيّ والنّسْبيّ أو الْحُكْميّ للْعبادات ، وباشْتراط بقاء النّيّة أثْناء الْعبادات أوْ عدم

اشْتراط ذلك اكْتفاءً باسْتصْحابها منْ أوّل الْعبادات ، وهذا وغيْرُهُ في الْجُمْلة ، ولهُمْ - بعْد ذلك -هنا تفْصيلٌ :

■ أمّا الْحنفيّةُ فقدْ قالُوا : الأَصْل أنّ وقْت النّيّة أوّل الْعبادات ، ولكنّ الأَوّل حقيقيٌّ وحُكْميٌّ فقالُوا في الصّلاة : لوْ نوى قبْل الشُّرُوع . . فعنْد مُحمّدٍ : لوْ نوى عنْد الْوُضُوء أنّهُ يُصلّي الظُّهْر أو الْعصْر مع الإمام ولمْ يشْتغل بعْد النّيّة بما ليْس منْ جنْس الصّلاة ، إلاّ أنّهُ لمّا انْتهى إلى مكان الصّلاة لمْ تحْضُرْهُ النّيّةُ . . . جازتْ صلاتُهُ بتلْك النّيّة ، وهكذا رُوي عنْ أبي حنيفة وأبي يُوسُف . . . كذا في الْخُلاصة ، وفي التّجْنيس : إذا توضّأ في منْزله ليُصلّي الظُّهْر ثُمّ حضر الْمسْجد فافْتتح بتلْك النّيّة ، فإنْ لمْ يشْتغل بعملٍ آخر يكْفيه ذلك - هكذا قال مُحمّدٌ في الرُّقيّات - لأنّ النّيّة الْمُتقدّمة يُبْقيها إلى وقْت الشُّرُوع حُكْمًا - كما في الصّوْم - إذا لمْ يُبدّلْها بغيْرها .

■ وعنْ مُحمّد بْن سلمة : أنّهُ إنْ كان عنْد الشُّرُوع بحيْثُ إنّهُ لوْ سُئل : أيّةُ صلاةٍ يُصلّي ؟ يُجيبُ على الْبديهة منْ غيْر تفْكيرٍ . . فهُو نيّةٌ تامّةٌ ، ولو احْتاج إلى التّأمُّل لا تجُوزُ .

■ وفي فتْح الْقدير : فقدْ شرطُوا عدم ما ليْس منْ جنْس الصّلاة لصحّة تلْك النّيّة مع تصْريحهمْ بأنّها صحيحةٌ ، مع الْعلْم بأنّهُ يتخلّل بيْنها وبيْن الشُّرُوع الْمشْيُ إلى مقام الصّلاة وهُو ليْس منْ جنْسها ، فلا بُدّ منْ كوْن الْمُراد بما ليْس منْ جنْسها ما يدُل على الإعْراض ، بخلاف ما لو اشْتغل بكلامٍ أوْ أكْلٍ ، أوْ نقُول : عدُّ الْمشْي إليْها منْ أفْعالها غيْرُ قاطعٍ للنّيّة .

■ وفي الْخُلاصة : أجْمع أصْحابُنا أنّ الأفْضل أنْ تكُون مُقارنةً للشُّرُوع ، ولا يكُون شارعًا بمُتأخّرةٍ ؛ لأنّ ما مضى لمْ يقعْ عبادةً لعدم النّيّة ، فكذا الْباقي لعدم التّجزّي . . . والْمُعْتمدُ أنّهُ لا بُدّ من الْقران حقيقةً أوْ حُكْمًا . وقالُوا : الْغُسْل كالْوُضُوء في السُّنن وفي التّيمُّم : ينْوي عنْد الْوضْع على الصّعيد .

■ وأمّا وقْتُ النّيّة في الزّكاة ، فقال في الْهداية : ولا يجُوزُ أداءُ الزّكاة إلاّ بنيّةٍ مُقارنةٍ للأداء ، أوْ مُقارنةٍ لعزْل مقْدار ما وجب ؛ لأنّ الزّكاة عبادةٌ فكان منْ شرْطها النّيّةُ ، والأصْل فيها الاقْتران إلاّ أنّ الدّفْع يتفرّقُ ، فاكْتُفي بوُجُودها حال الْعزْل تيْسيرًا ، كتقْديم النّيّة في الصّوْم .

■ وهل تجُوزُ بنيّةٍ مُتأخّرةٍ عن الأْداء ؟ قال في شرْح الْمجْمع : لوْ دفعها بلا نيّةٍ ثُمّ نوى بعْدهُ : فإنْ كان الْمال قائمًا في يد الْفقير جاز ، وإلاّ فلا .

■ وأمّا الصّوْمُ : فإنْ كان فرْضًا – هُو أداءُ رمضان – جاز بنيّةٍ مُتقدّمةٍ منْ غُرُوب الشّمْس ، وبمُقارنةٍ وهُو الأْصْل ، وبمُتأخّرةٍ عن الشُّرُوع إلى ما قبْل نصْف النّهار الشّرْعيّ ؛ تيْسيرًا على الصّائمين . وإنْ كان فرْضًا غيْر أداء رمضان – منْ قضاءٍ أوْ نذْرٍ أوْ كفّارةٍ – فيجُوزُ بنيّةٍ مُتقدّمةٍ منْ غُرُوب الشّمْس إلى طُلُوع الْفجْر ، ويجُوزُ بنيّةٍ مُقارنةٍ لطُلُوع الْفجْر لأنّ الأْصْل الْقرانُ . وإنْ كان الصّوْمُ نفْلاً فكرمضان أداءً .

■ وأمّا النّيّةُ في الْوُضُوء : فمحلُّها عنْد غسْل الْوجْه ، وينْبغي أنْ تكُون في أوّل السُّنن عنْد غسْل الْيديْن إلى الرُّسْغيْن لينال ثواب السُّنن

■ وأمّا الْحجُّ : فالنّيّةُ فيه سابقةٌ عن الأْداء عنْد الإْحْرام ، وهُو النّيّةُ مع التّلْبية أوْ ما يقُومُ مقامها منْ سوْق الْهدْي ، ولا يُمْكنُ فيه الْقرانُ أو التّأخُّرُ ؛ لأنّهُ لا تصحُّ أفْعالُهُ إلاّ إذا تقدّم الإْحْرامُ ، وهُو رُكْنٌ فيه أوْ شرْطٌ . . . على قوْليْن :

■ وعنْد اشْتراط بقاء النّيّة في كُل رُكْنٍ منْ أرْكان الْعبادة ، أوْ عدم اشْتراط ذلك ، قال ابْنُ نُجيْمٍ : قالُوا في الصّلاة : لا تُشْترطُ النّيّةُ في الْبقاء للْحرج ، فكذا بقيّةُ الْعبادات .

■ وفي الْقُنْية : لا تلْزمُ نيّةُ الْعبادة في كُل جُزْءٍ ، إنّما تلْزمُ في جُمْلة ما يفْعلُهُ في كُل حالٍ ، وإنْ تعمّد أنْ لا ينْوي الْعبادة ببعْض ما يفْعلُهُ من الصّلاة ، لا يسْتحقُّ الثّواب ، ثُمّ إنْ كان ذلك فعْلاً لا تتمُّ الْعبادةُ بدُونه فسدتْ ، وإلاّ فلا وقدْ أساء .

■ وقال ابْنُ نُجيْمٍ : الْمذْهبُ الْمُعْتمدُ أنّ الْعبادة ذات الأْفْعال يُكْتفى بالنّيّة في أوّلها ، ولا يُحْتاجُ إليْها في كُل فعْلٍ ، اكْتفاءً بانْسحابها عليْها ، إلاّ إذا نوى ببعْض الأْفْعال غيْر ما وُضع لهُ ، قالُوا : لوْ طاف طالبًا الْغريم لا يُجْزئُهُ ، ولوْ وقف كذلك بعرفاتٍ أجْزأهُ ، والْفرْقُ أنّ الطّواف قُرْبةٌ مُسْتقلّةٌ بخلاف الْوُقُوف ، وفرّق الزّيْلعيُّ بيْنهُما بفرْقٍ آخر وهُو أنّ النّيّة عنْد الإْحْرام تضمّنتْ جميع ما يُفْعل في الإْحْرام ، فلا يُحْتاجُ إلى تجْديد النّيّة ، والطّوافُ يقعُ بعْد التّحلُّل وفي الإْحْرام منْ

وجْهٍ ، فاشْتُرِط فيه أصْل النيّة لا تعْيينُ الْجِهة.

■ وذكر الْمالكيّةُ وقْت النيّة ضمْن شُرُوطها ، فقالُوا : أنْ تكُون النيّةُ مُقارنةً للْمنْويّ ؛ لأنّ أوّل الْعبادة لوْ عرا من النيّة لكان مُتردّدًا بيْن الْقُرْبة وغيْرها ، وآخرُ الصّلاة مبْنيٌّ على أوّلها وتبعٌ لهُ ، بدليل أنّ أوّلها إنْ نوى نفْلاً أوْ واجبًا أوْ قضاءً أوْ أداءً كان آخرُها كذلك ، فلا يصحُّ .

■ واسْتثْنى منْ ذلك الصّوْم للْمشقّة ، فجوّزُوا عدم مُقارنة النيّة لأوّل الْمنْويّ لإتْيان أوّل الصّوْم حالة النّوْم غالبًا ، والزّكاة في الْوكالة على إخْراجها ؛ عوْنًا على الإْخْلاص ودفْعًا لحاجة الْفقير منْ باذلها ، فتُقدّمُ النيّةُ عنْد الْوكالة ولا تتأخّرُ لإخْراج الْمنْويّ .

■ وجوّز ابْنُ الْقاسم – كما نقل الْقرافيُّ عنْ صاحب الطّراز – تُقدّمُ النّيّةُ عنْدما يأْخُذُ في أسْباب الطّهارة بذهابه إلى الْحمّام أو النّهْر ، بخلاف الصّلاة ، وخالفهُ سحْنُونٌ في الْحمّام ووافقهُ في النّهْر وفرّق بأنّ النّهْر لا يُؤْتى غالبًا إلاّ لذلك ، فتميّزت الْعبادةُ فيه ، بخلاف الْحمّام فإنّهُ يُؤْتى لذلك ولإزالة الدّرن ، والرّفاهيةُ غالبةٌ فيه ، فلمْ تتميّز الْعبادةُ وافْتقرتْ إلى النّيّة .

■ وقيل : لا تُجْزئُ النّيّةُ الْمُتقدّمةُ في الْموْضعيْن حتّى تتّصل بفعْل الْواجب .

■ وقيل : إذا نوى عنْد أوّل الْوُضُوء وهُو أوّل السُّنن أجْزأهُ ؛ لأنّ الثّواب على السُّنن ، والتّقرُّب بها إنّما يحْصُل عنْد النّيّة .

■ وقيل : إنْ عزبتْ نيّتُهُ قبْل الْمضْمضة والاسْتنْشاق وبعْد الْيديْن لا يُجْزئُهُ ، وإن اتّصلتْ بهما وعزبتْ قبْل الْوجْه أجْزأهُ ؛ لأنّ الْمضْمضة من الْوجْه وبها غسْل ظاهر الْفم وهي الشّفةُ من الْوجْه

■ وقال الشّافعيّةُ : الْغرضُ من النّيّات تمْييزُ الْعبادات عن الْعادات أوْ تمْييزُ رُتب الْعبادات ، ولذا وجب أنْ تقْترن النّيّةُ بأوّل الْعبادة ليقع أوّلُها مُميّزًا ثُمّ يبْتني عليْه ما بعْدهُ ، إلاّ أنْ يشُقّ مُقارنتُها إيّاها كما في نيّة الصّوْم . فإنْ تأخّرت النّيّةُ عنْ أوّل الْعبادة لمْ يجُزْ ذلك إلاّ في صوْم التّطوُّع ؛ لأنّ ما مضى يقعُ مُردّدًا بيْن الْعبادة والْعادة ، أوْ بيْن رُتب الْعبادة . وإنْ تقدّمت النّيّةُ ، فإن اسْتمرّتْ إلى أنْ شرع في الْعبادة أجْزأهُ ما اقْترن منْها .

■ وإن انْقطعت النّيّةُ قبْل الشُّرُوع في الْعبادة لمْ تصحّ الْعبادةُ لتردُّدها ، فإنْ قرُب انْقطاعُها

أجْزأتْ عنْد بعْض الْعُلماء ، وفيه بُعْدٌ ؛ لأنّها إذا انْقطعتْ وقع ابْتداءُ الْعبادة مُردّدًا ، فإن اكْتفى بالنّيّة السّابقة فلا فرْق بيْن بعيدها وقريبها .

■ وينْبغي أنْ يسْتصْحب ذكْر النّيّة في الْوُضُوء إلى آخره لأنّهُ أقْربُ إلى مقْصُود النّيّات ، ولا يفْعل ذلك في الصّلاة لأنّ قلْبهُ مشْغُولٌ عنْ ذكْر النّيّة بمُلاحظة معْنى الأذْكار والْقراءة والدُّعاء فكان الاشْتغال بالأهمّ في الصّلاة أوْلى منْ مُلاحظة النّيّة وذكْرها .

■ ويكْفي في الْعبادة نيّةٌ فرْدةٌ لقوْله عليْه الصّلاةُ والسّلامُ : إنّما الأعْمال بالنّيّات ، وقدْ قال الشّافعيُّ في الصّلاة : ينْوي مع التّكْبير لا قبْلهُ ولا بعْدهُ .

■ وقال الْعزُّ بْنُ عبْد السّلام : اخْتلف أصْحابُنا في ذلك ، فمنْهُمْ منْ قال : لا بُدّ من اسْتمْرار النّيّة منْ أوّل التّكْبير إلى آخره ، وهذا مُخالفٌ للنّيّة في جميع الْعبادات مع ما فيه من الْعُسْر الْمُوجب للْوسْواس ، والْمُخْتارُ أنّهُ تُجْزئُ نيّةٌ فرْدةٌ مقْرُونةٌ بالتّكْبير ، كما تُجْزئُ في الصّوْم والزّكاة والْكفّارات والاعْتكاف والْحجّ والْعُمْرة نيّةٌ فرْدةٌ . وقال : وتصحُّ الْعبادةُ بنيّةٍ تقعُ في أثْنائها ، ولهُ صُورٌ :

■ إحْداها : أنْ ينْوي الْمُتنفّل ركْعةً واحدةً ، ثُمّ ينْوي أنْ يزيد عليْها ركْعةً أوْ أكْثر ، فتصحُّ الرّكْعةُ الأُولى بالنّيّة الأُولى ويصحُّ ما زاد عليْها بالنّيّة الثّانية ، وليْس هذا كتفْريق النّيّة على الصّلاة لأنّ الْمُفرّق ينْوي ما لا يكُونُ صلاةً مُفْردةً ، وهاهُنا قدْ نوى بالنّيّة الأولى الرّكْعة الأُولى وهي صلاةٌ على حيالها ، ونوى الزّيادة بنيّةٍ ثانيةٍ وهي صلاةٌ أيْضًا على حيالها ، وليْس كمنْ نوى تكْبيرةً أوْ قوْمةً ، أوْ نوى من الظُّهْر ركْعةً على انْفرادها ، فإنّ الرّكْعة الْمُنْفردة لا تكُونُ ظُهْرًا .

■ الصُّورةُ الثّانيةُ : إذا نوى الاقْتصار في الصّلاة على الأرْكان والشّرائط ثُمّ نوى التّطْويل الْمشْرُوع أو السُّنن الْمشْرُوعة ، فإنّ ذلك يُجْزئُهُ لاشْتمال النّيّة الأولى على الأرْكان والشّرائط ، والثّانية على السُّنن التّابعة ، فإنّها وإنْ لمْ تكُنْ صلاةً مُسْتقلّةً فقدْ ثبت للتّابع ما لا يثْبُتُ للْمتْبُوع

■ الصُّورةُ الثّالثةُ : إذا نوى الْمُسافرُ الْقصْر ثُمّ نوى الإتْمام ، فإنّ الرّكْعتيْن الأُوليْن تُجْزئانه بالنّيّة الأُولى ، وتُجْزئُهُ الرّكْعتان الأُخْريان بالنّيّة الثّانية ؛ لأنّ الْمقْصُود بالنّيّتيْن تمْييزُ رُتْبة الصّلاة – الظُّهْر

عنْ غيْرها ، وقدْ تحقّق ذلك بالنّيّتيْن .

■ الصُّورةُ الرّابعةُ : إذا اقْترن بصلاة الْقاصر ما يُوجبُ الإتْمام أوْ طرأ عليْها ما يُوجبُ إتْمامها – وهُو لا يشْعُرُ به في أثْناء الصّلاة – فإنّهُ يُتمُّ الصّلاة بالنّيّة الثّانية ، وقدْ قال بعْضُ أصْحابنا : تُجْزئُهُ بالنّيّة الأُولى .

■ الصُّورةُ الخامسةُ : إذا مات الأجيرُ في الحجّ قبْل إتْمامه الحجّ ، وجوّزْنا الْبناء عليْه فاسْتأْجرْنا منْ يبْني عليْه ، وقدْ وقع ما تقدّم بنيّة الأجير الأوّل وما تأخّر بنيّة الأجير الثّاني ، فيُؤدّى الحجُّ بنيّتيْن منْ شخْصيْن : إحْداهُما في ابْتدائه ، والثّانيةُ في انْتهائه .

■ وقال الحنابلةُ : يجبُ الإتْيانُ بالنّيّة عنْد أوّل واجبٍ في الْوُضُوء أو الْغُسْل أو التّيمُّم أوْ غيْر ذلك من الْعبادات ؛ لأنّ النّيّة شرْطٌ لصحّة واجباتها ، فيُعْتبرُ كوْنُها كُلّها بعْد النّيّة ، فلوْ فعل شيْئًا من الْواجبات قبْل النّيّة لمْ يعْتدّ به .

■ ويُسْتحبُّ الإتْيانُ بالنّيّة عنْد مسْنُونات الطّهارة إنْ وُجد ذلك الْمسْنُونُ قبْل واجبٍ . كغسْل الْيديْن لغيْر الْقائم منْ نوْم اللّيْل إنْ وُجد قبْل التّسْمية في الْوُضُوء أو الْغُسْل ، لتشْمل النّيّةُ مفْرُوض الطّهارة ومسْنُونها ، فيُثابُ على كُلٍّ منْهُما . فإنْ غسل الْيديْن بغيْر نيّةٍ فكمنْ لمْ يغْسلْهُما لحديث : إنّما الأعْمال بالنّيّات ، فتُسْتحبُّ إعادةُ غسْلهما بعْد النّيّة ، ويجُوزُ تقْديمُ النّيّة على الطّهارة بزمنٍ يسيرٍ كصلاةٍ وزكاةٍ ، ولا يُبْطل النّيّة عملٌ يسيرٌ قبْل الشُّرُوع في الطّهارة ونحْوها فإنْ كثُر بطلتْ واحْتاج إلى اسْتئْنافها ، ويُسْتحبُّ اسْتصْحابُ ذكْرها بقلْبه بأنْ يكُون مُسْتحْضرًا لها في جميع الطّهارة لتكُون أفْعالُهُ كُلُّها مُقْترنةً بالنّيّة . ولا بُدّ من اسْتصْحاب حُكْمها بأنْ لا ينْوي قطْعها ، فإنْ عزبتْ عنْ خاطره لمْ يُؤثّرْ ذلك في الطّهارة كما لا يُؤثّرُ في الصّلاة . ومحلُّهُ إنْ لمْ ينْو بالْغسْل نحْو تنْظيفٍ أوْ تبرُّدٍ ، كما ذكرهُ الْمجْدُ .

حكْمةُ مشْرُوعيّة النّيّة

■ بيّن الْفُقهاءُ أنّ النّيّة شُرعتْ لتمْييز الْعبادات عن الْعادات حتّى يتميّز ما هُو لله تعالى عمّا ليْس لهُ ، وتتميّزُ مراتبُ الْعبادات في أنْفُسها حتّى تتميّز مُكافأةُ الْعبْد على فعْله ويظْهر قدْرُ تعْظيمه

لربّه .

فمثال الأوّل : الْغُسْل يكُونُ عبادةً وتبرُّدا ، وحُضُورُ الْمساجد يكُونُ للصّلاة وفُرْجةً واسْتراحةً ، والسُّجُودُ لله أوْ للصّنم .

ومثال الثّاني : الصّلاةُ ، لانْقسامها إلى فرْضٍ ونفْلٍ ، والْفرْضُ إلى فرْضٍ على الأعْيان وفرْضٍ على الْكفاية وفرْضٍ منْذُورٍ وفرْضٍ غيْر منْذُورٍ . ومنْ هُنا تظْهرُ كيْفيّةُ تعلُّق النّيّة بالْفعْل ؛ فإنّها للتّمْييز .

■ وتمْييزُ الشّيْء قدْ يكُونُ بإضافته إلى سببه كصلاة الْكُسُوف والاسْتسْقاء والْعيديْن ، وقدْ يكُونُ بوقْته كصلاة الظُّهْر ، أوْ بحُكْمه الْخاصّ كالْفريضة ، أوْ بوُجُود سببه كرفْع الْحدث ، فإنّ الْوُضُوء سببٌ في رفْع الْحدث ، فإذا نوى رفْع الْحدث ارْتفع وصحّ الْوُضُوءُ .

ما يُشْترطُ فيه تعْيينُ الْمنويّ

■ ذهب الْفُقهاءُ إلى اشْتراط تعْيين النّيّة في عبادةٍ لا تلْتبسُ بغيْرها منْ جنْسها من الْعبادات ، وهذا في الْجُمْلة ، ولهُمْ وراء الإجْمال تفْصيلٌ :

■ قال ابْنُ نُجيْمٍ : الأصْل عنْدنا أنّ الْمنْويّ إمّا أنْ يكُون من الْعبادات أوْ لا . فإنْ كان عبادةً : فإنْ كان وقْتُها ظرْفًا للْمُؤدّى ، بمعْنى أنّهُ يسعُهُ وغيْرهُ ، فلا بُدّ من التّعْيين ، كالصّلاة ، كأنْ ينْوي الظُّهْر ، فإنْ قرنهُ بالْيوْم كظُهْر الْيوْم صحّ وإنْ خرج الْوقْتُ ، أوْ قرنهُ بالْوقْت ولمْ يكُنْ خرج الْوقْتُ صحّ أيْضًا ، فإنْ خرج ونسيهُ لا يُجْزئُهُ في الصّحيح . . . وعلامةُ التّعْيين للصّلاة بحيْثُ يكُونُ لوْ سُئل : أيُّ صلاةٍ يُصلّي ؟ يُمْكنُهُ أنْ يُجيب بلا تأمُّلٍ .

■ وإنْ كان وقْتُها معْيارًا لها ، بمعْنى أنّهُ لا يسعُ غيْرها كالصّوْم في يوْم رمضان ، فإنّ التّعْيين ليْس بشرْطٍ إنْ كان الصّائمُ صحيحًا مُقيمًا ، فيصحُّ بمُطْلق النّيّة وبنيّة النّفْل وواجبٍ آخر ؛ لأنّ التّعْيين في الْمُتعيّن لغْوٌ ، وإنْ كان مريضًا ففيه روايتان ، والصّحيحُ وُقُوعُهُ عنْ رمضان سواءٌ نوى واجبًا آخر أوْ نفْلاً ، وأمّا الْمُسافرُ فإنْ نوى عنْ واجبٍ آخر وقع عمّا نواهُ لا عنْ رمضان ، وفي النّفْل روايتان .

■ وإنْ كان وقْتُها مُشْكلاً كوقْت الْحجّ – يُشْبهُ الْمعْيار باعْتبار أنّهُ لا يصحُّ في السّنة إلاّ حجّةٌ واحدةٌ ، ويُشْبهُ الظّرْف باعْتبار أنّ أفْعالهُ لا تسْتغْرقُ وقْتهُ – فيُصابُ بمُطْلق النّيّة نظرًا إلى الْمعْياريّة ، وإنْ نوى نفْلاً وقع عمّا نوى نظرًا إلى الظّرْفيّة .

■ ولا يسْقُطُ التّعْيينُ في الصّلاة بضيق الْوقْت لأنّ السّعة باقيةٌ ، بمعْنى أنّهُ لوْ شرع مُتنفّلاً صحّ وإنْ كان حرامًا .

■ ولا يتعيّنُ جُزْءٌ منْ أجْزاء الْوقْت بتعْيين الْعبْد قوْلاً ، وإنّما يتعيّنُ بفعْله .

■ وأمّا في الْقضاء فلا بُدّ من التّعْيين صلاةً أوْ صوْمًا أوْ حجًّا .

■ وأمّا إذا كثُرت الْفوائتُ فقد اخْتلفُوا في اشْتراط التّعْيين لتمْييز الْفُرُوض الْمُتّحدة منْ جنْسٍ واحدٍ ، والأْصحُّ : أنّهُ إنْ كان عليْه قضاءٌ منْ رمضان واحدٍ فصام يوْمًا ناويًا عنْهُ ، ولكنْ لمْ يُعيّنْ أنّهُ صائمٌ عنْ يوْم كذا ، فإنّهُ يجُوزُ ، ولا يجُوزُ منْ رمضانيْن ما لمْ يُعيّنْ أنّهُ صائمٌ عنْ رمضان سنة كذا .

■ وقالُوا في الْمُتيمّم : لا يجبُ التّمْييزُ بيْن الْحدث والْجنابة ، حتّى لوْ تيمّم الْجُنُبُ يُريدُ به الْوُضُوء جاز ، خلافًا للْخصّاف .

■ وقال ابْنُ نُجيْمٍ : التّعْيينُ لتمْييز الأْجْناس ، فنيّةُ التّعْيين في الْجنْس الْواحد لغْوٌ لعدم الْفائدة ، ويُعْرفُ اخْتلافُ الْجنْس باخْتلاف السّبب ، والصّلاةُ كُلُّها منْ قبيل الْمُخْتلف ، حتّى الظُّهْريْن منْ يوْميْن أو الْعصْريْن منْ يوْميْن ، بخلاف أيّام رمضان فإنّهُ يجْمعُها شُهُودُ الشّهْر .

■ وعلى هذا أداءُ الْكفّارات لا يحْتاجُ فيه إلى التّعْيين في جنْسٍ واحدٍ ، ولوْ عيّن لغا ، وفي الأْجْناس لا بُدّ منْهُ .

■ هذا في الْفرائض والْواجبات . . . وأمّا النّوافل فاتّفق أصْحابُنا على أنّها تصحُّ بمُطْلق النّيّة ، وأمّا السُّننُ الرّواتبُ فاخْتلفُوا في اشْتراط تعْيينها ، والصّحيحُ الْمُعْتمدُ عدمُ الاشْتراط وأنّها تصحُّ بنيّة النّفْل وبمُطْلق النّيّة .

■ وأضاف ابْنُ نُجيْمٍ : الْخطأُ فيما لا يُشْترطُ التّعْيينُ لهُ لا يضُرُّ ، كتعْيين مكان الصّلاة وزمانها

وعدد الرّكعات ، فلوْ عيّن عدد ركعات الظُّهْر ثلاثًا أوْ خمسًا صحّ لأنّ التّعْيين ليْس بشرْطٍ فالْخطأُ فيه لا يضُرُّ . . . وأمّا فيما يُشْترطُ فيه التّعْيينُ ، كالْخطأ من الصّوْم إلى الصّلاة وعكْسه ومنْ صلاة الظُّهْر إلى الْعصْر . . . فإنّهُ يضُرُّ .

■ وأمّا إذا لمْ يكُن الْمنْويُّ من الْعبادات الْمقْصُودة وإنّما هُو من الْوسائل كالْوُضُوء والْغُسْل والتّيمُّم ، فقالُوا في الْوُضُوء : لا ينْويه لأنّهُ ليْس بعبادةٍ ، والْمذْهبُ : أنّهُ ينْوي ما لا يصحُّ إلاّ بالطّهارة من الْعبادة أوْ رفْع الْحدث ، وعنْد الْبعْض : تكْفي نيّةُ الطّهارة . وأمّا في التّيمُّم فقالُوا : إنّهُ ينْوي عبادةً مقْصُودةً لا تصحُّ إلاّ بالطّهارة ، مثْل سجْدة التّلاوة وصلاة الظُّهْر . . . وفي التّيمُّم لقراءة الْقُرْآن روايتان .

■ وقال الْقرافيُّ : الْمقاصدُ من الأعْيان في الْعُقُود إنْ كانتْ مُتعيّنةً اسْتغْنتْ عمّا يُعيّنُها ، كمن اسْتأْجر بساطًا أوْ عمامةً أوْ ثوْبًا لمْ يحْتجْ إلى تعْيين الْمنْفعة في الْعقْد لانْصراف هذه الأشْياء بصُورها إلى مقاصدها عادةً ، وإنْ كانت الْعيْنُ مُتردّدةً ، كالدّابّة للْحمْل والرُّكُوب والأرْض للزّرْع والْغرْس والْبناء ، افْتقرتْ إلى التّعْيين .

■ وقال : النُّقُودُ إذا كان بعْضُها غالبًا لمْ يحْتجْ إلى تعْيينٍ في الْعقْد ، وإنْ لمْ يكُن احْتاج إلى التّعْيين وقال كذلك : الْحُقُوقُ إذا تعيّنتْ لمُسْتحقّيها كالدّيْن الْمنْقُول فإنّهُ مُعيّنٌ لربّه ، فلا يحْتاجُ إلى نيّةٍ ، مثْل حُقُوق الله تعالى إذا تعيّنتْ لهُ كالإيمان ، وإنْ تردّد الْحقُّ بيْن ديْنيْن أحدُهُما برهْنٍ والآخرُ بغيْر رهْنٍ ، فإنّ الدّفْع يفْتقرُ في تعْيين الْمدْفُوع لأحدهما إلى النّيّة .

■ وأضاف الْقرافيُّ : التّصرُّفاتُ إذا كانتْ دائرةً بيْن جهاتٍ شتّى لا تنْصرفُ لجهةٍ إلاّ بنيّةٍ ، كمنْ أوْصى لأيْتامٍ فاشْترى سلْعةً لا تتعيّنُ لأحدهمْ إلاّ بالنّيّة ، ومتى كان التّصرُّفُ مُتّحدًا انْصرف إلى جهته بغيْر نيّةٍ ، فإنّ مُباشرة الْعقْد كافيةٌ في حُصُول ملْكه للسّلْعة . . . والنّيّةُ في هذه الأمُور مقْصُودُها التّمْييزُ ، ومقْصُودُها في الْعبادات التّمْييزُ والتّقرُّبُ معًا .

■ وقال الْحطّابُ : منْ فرائض الصّلاة نيّةُ الصّلاة الْمُعيّنة . قال صاحبُ الْمُقدّمات : النّيّةُ الْكاملةُ هي الْمُتعلّقةُ بأرْبعة أشْياء : تعْيينُ الصّلاة ، والتّقرُّبُ بها ، ووُجُوبُها ، وآدابُها . واسْتشْعارُ الإيمان

يُعْتبرُ في ذلك كُلّه ، فهذه هي النّيّةُ الْكاملةُ ، فإنْ سها عن الإيْمان أوْ وُجُوب الصّلاة أوْ كوْنها أداءً أو التّقرُّب بها ، لمْ تفْسُدْ إذا عيّنها لاشْتمال التّعْيين على ذلك . قال صاحبُ الطّراز : والمُعيدُ للصّلاة في جماعةٍ والصّبيُّ لا يتعرّضان لفرْضٍ ولا لنفْلٍ .

■ ومن الذّخيرة قال صاحبُ الطّراز : النّوافل على قسْميْن : مُقيّدةٌ ومُطْلقةٌ . فالمُقيّدةُ السُّننُ الخَمْسُ وهي : الْعيدان والْكُسُوفُ والاسْتسْقاءُ والْوتْرُ وركْعتا الْفجْر ، فهذه مُقيّدةٌ إمّا بأسْبابها أوْ بأزْمانها ، فلا بُدّ فيها منْ نيّة التّعْيين ، فمن افْتتح الصّلاة منْ حيْثُ الجُمْلةُ ثُمّ أراد ردّها إلى هذه لمْ يجُزْ . والمُطْلقةُ ما عدا هذه فتكْفي فيها نيّةُ الصّلاة ، فإنْ كان في ليْلٍ فهُو قيامُ اللّيْل ، أوْ في قيام رمضان ، أوْ كان منْهُ أوّل النّهار فهُو الضُّحى ، أوْ عنْد دُخُول مسْجدٍ فهُو تحيّةٌ ، وكذلك سائرُ الْعبادات منْ حجٍّ أوْ صوْمٍ أوْ عُمْرةٍ لا يفْتقرُ إلى التّعْيين في مُطْلقه ، بل يكْفي فيه أصْل الْعبادة .

■ قال الشّافعيّةُ : يُشْترطُ التّعْيينُ فيما يلْتبسُ دُون غيْره ، لقوْل النّبيّ ﷺ : وإنّما لكُل امْرئٍ ما نوى . . . فهذا ظاهرٌ في اشْتراط التّعْيين ؛ لأنّ أصْل النّيّة فُهم منْ أوّل الْحديث : إنّما الأعْمال بالنّيّات .

فمن الأوّل – أيْ ممّا يلْتبسُ بغيْره – الصّلاةُ : فيُشْترطُ التّعْيينُ في الْفرائض لتساوي الظُّهْر والْعصْر فعْلاً وصُورةً ، فلا يُميّزُ بيْنهُما إلاّ التّعْيينُ ، وفي النّوافل غيْر الْمُطْلقة كالرّواتب فيُعيّنُها بإضافتها إلى الظُّهْر مثلاً ، وكوْنها الّتي قبْلها أو الّتي بعْدها .

ومنْ ذلك الصّوْمُ : والْمذْهبُ الْمنْصُوصُ الّذي قطع به الأصْحابُ اشْتراطُ التّعْيين فيه لتمْييز رمضان من الْقضاء والنّذْر والْكفّارة والْفدْية . ومثْل الرّواتب في ذلك الصّوْمُ ذُو السّبب .

ومن الثّاني – أيْ ما لا يُشْترطُ فيه التّعْيينُ لعدم الْتباسه بغيْره – الطّهاراتُ والْحجُّ والْعُمْرةُ ؛ لأنّهُ لوْ عيّن غيْرها انْصرف إليْها ، وكذا الزّكاةُ والْكفّاراتُ .

■ ونقل السُّيُوطيُّ ضابطًا هُو أنّ كُل موْضعٍ افْتقر إلى نيّة الْفريضة افْتقر إلى تعْيينها إلاّ التّيمُّم للْفرْض في الأصحّ .

وقال : الْقاعدةُ أنّ ما لا يُشْترطُ التّعرُّضُ لهُ جُمْلةً وتفْصيلاً إذا عيّنهُ وأخْطأ لمْ يضُرّ ، كتعْيين مكان الصّلاة وزمانها ، وما يُشْترطُ فيه التّعْيينُ فالْخطأُ فيه مُبْطلٌ ، كالْخطأ من الصّوْم إلى الصّلاة وعكْسه ، وما يجبُ التّعرُّضُ لهُ.

قال الشيخ ولي الدين العراقي فقال:

سبع سؤالات لذي فهم أنت	تحكي لكل عالم في النية
حقيقة حكم محل زمن	وشرطها والقصد والكفية

جدول المحتويات

مذكرة في

الاعتقاد والعقل

قوة الإنسان الإدراكية

في داخل الإنسان قوة إدراكية كبيرة ؛ ولكن إدراكها لا ينبع من داخلها وإنما يأتيها من العالم الخارجي عنها. ولهذه القوة الإدراكية في الإنسان منافذ تطل منها على العالم الخارجي ألا وهي الحواس الخمس : حاسة البصر ، وحاسة السمع . وحاسة الشم ، وحاسة الذوق ، وحاسة اللمس . كما لها صلات أخرى تطل منها على عالم النفس وهي تتمثل بحاسة الانفعالات : كالرضى والغضب ، والحب والكراهية ، وحاسة الألم ، وحاسة التوازن ، وحاسة الشهوات ، إلخ .. فبمقدار ما تنقل هذه الحواس من حقائق للقوة الإدراكية تستطيع أن تتخيل وتدرك ، وتحلل وتركب ، وتستنتج القواعد العامة ، وتقيس الأشباه والنظائر على بعضها ، ولا تستطيع شيئاً غير ذلك ولا أكثر من ذلك.

ونستخلص مما سبق : أن النفس إنما تدرك الأشياء المنتشرة في هذا الكون الكبير عن طريق منافذها التي تطل منها على العالم ، ولولاها لم تدرك من الوجود الخارجي عنها شيئاً ، ولبقيت في جهل كامل. وقد أشار القرآن إلى هذه الحقيقة المسلم بها في قوله تعالى في سورة (البقرة) :

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]

حدود الحواس من الطارق ؟

حواسنا محدودة كماً وكيفاً ، فلا يصح لنا. – – عقلاً ولا واقعاً أن ننكر أشياء من حقائق الكون مهما كان نوعها إنكارا باتا قطعياً لمجرد أننا لم ترها ولم نسمع صوتها ولم نتصل بها بأية حاسة من حواسنا ؟ إلا أن نقيم دليلاً عقلياً وبرهاناً واضحاً يسلم به المنطق السليم .

أما الادعاء بأنها غير موجودة ؛ لأننا لم نحس بها فذلك أمر ترفضه العقول رفضاً باتاً ، كيف لا ونحن تعلم حقاً من ألوف التجارب اليومية ـ أن حواسنا محدودة كماً وكيفاً ! ! وهنالك أشياء كثيرة جداً في واقعنا تؤمن بها إيماناً قوياً دون أن نتصل بها عن طريق الحواس اتصالاً مباشراً ؛ وإنما تؤمن بها عن طريق الاستنتاج .فمثلا تسمع وأنت في داخل غرفتك طرقاً على الباب فتستنتج بلا تردد أن طارقاً ما يطرق الباب عليك دون أن تراه أو تسمع صوته ؛ ذلك لأنك تعلم

يقيناً أن الباب لا يدق نفسه بنفسه ، فتقول : لا بد أن يكون هنالك طارق طرقه .

ولا بد أن ألفت النظر هنا إلى خرافة يتحامق بها بعض صغار العقول من الملحدين فيقولون : إننا لا نسلم بوجود أشياء لا نحس بها ؛ كأنهم يتصورن أن حواسهم تستطيع أن تكشف كل شيء من خوهم ! والعلم في كل يوم يكتشف أشياء جديدة هي من حولنا ، بل هي داخلة في تركيبنا ، والناس في أجيالهم وقرونهم المديدة ، لم يحسوا منها طوال الزمان الغابر شيئاً . وكم يسهمون بأنفسهم بسبب إنكارهم لها ـ لو أنكروها ـ في الإعلان عن ضآلة أفهامهم ، ومنتهى جهلهم ، إنهم يبرهنون على أنفسهم في هذا بأنهم جهلاء ، صغار العقول ، مجازفون في إنكار حقائق الكون القائمة دلائلها فيه ! !

الخيال وحدوده

ولدينا في مركب قدرة الإدراك زاوية خاصة قادرة على تخيل أشياء موجودة أمامنا وفق هذا التركيب التخيلي. لكننا مهما حاولنا أن نتخيل صورة لما من الصور ومهما شيخنا فيها مع الأوهام الخرافية ، فإننا لا نستطيع أن نفعل أكثر من أن نضم أجزاء موجودة فعلاً في الكون بعضها إلى بعض ، وهذه الأجزاء قد أدركناها فعلاً عن طريق حواسنا ، ولكننا بهذا التخيل ضممنا هذه الأجزاء الموجودة بشكل متباعد فتخيلناها على شكل وحدة متهاسكة في صورة.

ونستنتج مما سبق أن خيالنا محصور حصراً تاماً فيما تدركه حواسنا فنحن مهما أوتينا من قدرة خيالية فلا نستطيع أن نتخيل حقيقة ما من الحقائق ، ما لم تدرك نموذجاً عنها بحواسنا .

ومن ذلك يستحيل علينا أن نتخيل حقيقة الدار الآخرة وما فيها في صورة ؛ لأننا لم نتصل بأي شيء مما فيها عن طريق أية حاسة من حواسنا .، وكذلك يعسر أن نتخيل حقيقة تكوين الملائكة والجن وامثال ذلك من المخلوقات البعيدة عن مجال حسنا .

وحقيقة الذات الإلهية أبلغ من ذلك ، فكيف نستطيع أن نتخيل حقيقةً ما لذات الخالق العظيم الذي لم نتصل بذاته العلية بحاسة من حواسنا ؟ ! ولذلك قال العقلاء قديماً : (كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك) ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) ﴾ [الشورى]

العقل مقيد بعالم الحس لا عمل له في الحكم على عالم الغيب (الميتافيزيك) . ذلك لأن القوة العاقلة فينا التي تجمع بين المصورة والذاكرة والمخيلة والذكاء ، تقوم بعملها الجبار في التحليل والتركيب ، والجمع والتفريق ، واستنتاج القواعد العامة والكليات ، وقياس الأشباه والنظائر على بعضها ، بعد أن تنقل الحواس المختلفة إلى المصورة أشرطة مشاهداتها في الكون : شريط المرئيات ، وشريط المسموعات ، وشريط المذوقات ، وشريط المشمومات ، وشريط الملموسات وشريط الوجدانيات الداخلة في الانسان ، ثم تكون أحكامها مقيدة بحدود هذه الأشياء التي جاءتها عن طريق الحس.

وهذه القوة العاقلة فينا لا تستطيع أبداً أن تصدر أحكامها على مغيبات لم يعرض أمامها شريط مسجل عنها ، لأن كل حكم تحكم به إنما تقوله متأثرة بواقع أشرطة الحواس التي جاءتها . وقد يختلف عالم الغيب عن عالم الحس كل الاختلاف فلا يمكن الحكم عليهما بالتشابه ، والقاعدة الثابتة عند العلماء : (أن الحكم على الشيء فرع عن تصوره)

فعالم الغيب لا تستطيع عقولنا أن تحكم على شيء فيه بإثبات أو نفي استقلالاً ذاتياً ، إلا أن يأتيها خبر يشهد العقل بإمكان وجودة وبصدق ناقله وعند ذلك تسلم بمضمونه تسليماً تاماً دون مناقشة أو اعتراض .

وحيث إن عالم الحس فينا محدود فالعقل فينا محدود أيضاً من وجهين :

الوجه الأول : محدود بين شيئين هما الزمان والمكان . لذلك يسأل العقل دائماً متى(الزمان) وأين (المكان) ؟ ذلك لأن جميع الأشياء التي اتصل بها حسّنا لا بد وأن توجد في مكان ، وأن يجري عليها زمان ، ولا يستطيع العقل أن يتصور أو يتخيل موجودات لا أمكنة لها ، أو أشياء لا يجرى عليها زمان. علماً بأن من الأصول المقررة عند جميع العقلاء الواعين المنصفين ، أن ذات الله تعالى لا يجري عليها زمان ، وليست بحاجة إلى مكان ، لأن الله هو خالق الزمان والمكان . وكان قبل وجود الزمان والمكان .

الوجه الثاني : محدود حينما يعلن عن التسليم بواحد من احتمالين في الكون لا ثالث لهما . فمثلاً : يتساءل كل إنسان عاقل بينه وبين نفسه : هل هذا الكون متناهي الحدود ؛ أو غير متناهي الحدود ؟ ثم هو مضطر عقلاً – أن يتردد بين هذين الاحتمالين ، ولا ثالث لهما وهو لا يسلّم بواحد منهما ، وما ذلك إلا لأن العقل محدود . فإذا كان العقل عاجزاً عن فهم أشياء في الكون من حوله ، وعاجزاً عن الإحاطة بصورتها الحقيقية ، فهو عن إدراك صورة لحقيقة الأمور الغيبية التي . وراء الطبيعة أضعف وأعجز . وإذا كان العقل محدوداً كما رأينا ، فكيف يستطيع أن يحيط بالله سبحانه ؟! وهو ﷻ غير محدود !!

قال الإمام الشافعي ﷺ في بيان أن العقل محدود : (إن للعقل حداً ينتهي إليه كما أن للبصر حداً ينتهي إليه) .

العالم مادي ومشهود

١ – ينقسم العالم إلى مادي مشهود ، وغيبي « ميتافيزيك » : كل الأشياء التي اتصلت بها حواسنا هي في عرفنا أشياء مادية ، لأننا شهدناها شهوداً حسياً ، ولا يشك بوجودها إلا فاقد الحس .

ولكن العالم مشحون بالأشياء الكثيرة العجيبة التي لم نتصل بها عن طريق حواسنا ، وهذه الأشياء موجودة حقاً ، ونؤمن بوجودها ، وإن كانت غائبة عن شهودنا ، ونسمي هذه الأشياء بعرفنا أموراً غيبية أي غائبة عن عالم الحس فينا . وقد تكون بواقع حالها أشياء مادية من نوع آخر ، ويمكن شهودها من قبلنا لو تهيأت لنا شروط مشاهدتها والإحساس بها ، أو لو وجدت لدينا الحاسة المناسبة التي نتمكن بوساطتها من كشف صورها والإحساس بذواتها .

هذه أرواحنا السارية في أجسامنا ؛ لا نسمعها ولا نراها ولا نلمسها ولا نشمها ولا نتذوقها ومع ذلك فهي موجودة فينا حقا ، نؤمن بها ونحرص عليها كل الحرص ، بل بها نحس ، وبها تألم ، وبها نسر ، وفيها بقاؤنا .

ونحن وإن لم نحس بأرواحنا إحساساً ظاهراً ، فقد آمنا بها استدلالاً من آثارها فينا ، بل علمنا بها أمر بدهي لا يحتاج إلى دليل .

وهناك قوى كثيرة منبثة في عالمنا إنما ندركها من آثارها، فمثلاً : قطعتان من حديد متشابهتان تماماً وزناً وشكلاً ولوناً ولمساً بحيث لا نستطيع أن ندرك بحواسنا أي فرق بينهما ؛ أما إحداهما فمشحونة بقوة مغناطيسية ، وأما الأخرى فغير مشحونة بمثل هذه القوة ؛ ثم إذا وجهنا حواسنا بدقة إلى هاتين القطعتين؛ فإننا لا نستطيع أن ندرك الشحنة المغناطيسية الموجودة في إحداهما عن طريق أي منفذ من منافذ الحس فينا .

لكننا نجد أن المشحونة بالمغناطيس تجذب الحديد إليها بقوة ، والأخرى عديمة من قوة الجذب فندرك عن طريق الاستدلال العقلي البدهي وجود هذه القوة الزائدة في الحديدة المشحونة بالمغناطيس .

ثم إن هذه الروح التي بين جنبينا ، والتي يعتبر علمنا بها من أولى خطوات علمنا بعالم الغيب ، بل هي أدنى مراحل العالم الغيبي بالنسبة لنا ، باعتبار اشتمال أجسامنا عليها ، ومع ذلك لا تستطيع عقولنا أن تدركها على حقيقتها ، أو تعرف صورتها وماهيتها .

ذلك أن الاستدلال العقلي أو الشعور الفطري قد يشير إلى وجود الشيء. الغائب عن الحس فيعلم الإنسان بوجوده بداهة ؛ وقد يدرك بعض صفات له بالبداهة أيضاً ، ولكنه لا يستطيع أن يتكهن كيف تكون حقيقته ، فهناك ملايين الاحتمالات الممكنة في العقل ، فكيف يستطيع أن يخصص واحداً منها دون مرجح ؟

بل لا يصح عقلاً قياس عالم الغيب على العالم المادي المشهود ، لاحتمال تغايرهما في كل شيء، في الماهيات، وفي الصفات الخاصة ، وفي الأعراض ونحن لم نتصل بعالم الغيب عن طريق أية حاسة من حواسنا .

فقد أدركنا بداهة وعن طريق الاستدلال من الآثار وجود خالق الكون العظيم أو (الله) ؛ وكما أننا لا نستطيع أن نتخيل صورة ما لحقيقة أرواحنا ـ وهي أدنى مراحل عالم الغيب بالنسبة لنا ، بل هي داخلة في تركيبنا ، وجسمنا قفص لها فكيف نستطيع أن نتخيل حقيقة ذات الخالق العظيم ؟ ! بل كيف يصح لنا عقلاً أن نبحث في كنهها ؟ ! وقد علمنا بداهة أن الله بكل شيء

محيط ، ونحن لم نحط بشيء منا ء منه ، عدا إدراك وجوده وبعض صفاته العظمى ! !

٢ – الوحي : هو الطريق الوحيد لتعريفنا بحقائق الأشياء الداخلة في عالم الغيب :

نستخلص ما يلي :

أ ـ أن عقولنا بحسب حالتها الراهنة التي فُطرت عليها مفتقرة في إدراك الغيب إلى الوحي

ب – أنه يجب علينا الوقوق في المغيبات عند النص الموحى به .

غيبيات صارت مكشوفة

وأما الأمور التي كانت غيباً عنا في الكون ثم استطعنا الوصول إلى معرفتها عن طريق الكشوف العلمية اليقينية ، أو البحوث النظرية المتبع فيها المنهج العلمي السليم، بالنظر لما تطور إليه العلم المعاصر من إمكان استخدام الطاقات الكونية الكامنة ، فإنها أمور خرجت عن كونها من الغيوب إلى كونها من الأمور الداخلة في العالم المادي المشهود.

* ومن ثم نرى أن المعتقدات تسلك إلى نفوس الناس من عدة طرق : منها ما هو منطقي سليم ومنها ما هو مقبول مع تطرق الاحتمال إليه ، ومنها ما هو مزيف مرفوض.

أ – فأما المنطقي السليم : فما يسلك مسالك اليقين.

ب – وأما المقبول الذي يتطرق إليه الاحتمال : فما يسلك مسالك الظنون الغالبة

ج ـ وأما المزيف المرفوض : فما يسلك مسالك الشكوك والأوهام والتقاليد العمياء

هناك ما يرد إلى ساحة إدراكنا من العالم الخارجي عن طريق الحواس ، ورأينا أن التسلسل مر فينا على الوجه التالي :

أ – تنقل حواسنا صورة الأشياء إلى ساحة الإدراك منا، ويتكرر ذلك عدة مرات مع يقيننا بسلامة حواسنا ، وقد يضاف إلى ذلك شهادة توافق الناس في نفس الإحساس .

ب – ينتقل إدراكنا الحسي من ساحة الإدراك الظاهر إلى خزائن العلم الثابت والمعرفة المتمكنة

ج – ثم يتغلغل ذلك العلم في أعماق نفوسنا ، حتى يصبح قادراً على أن يحرك عواطفنا ويوجه سلوكنا

د - وعند ذلك يكون عقيدة راسخة.

مثال ذلك : اعتقادنا بوجود أنفسنا، وبوجود الأرض من تحتنا ، وبوجود السماء من فوقنا ، وبوجود أشياء كثيرة تفوق الحصر ، واعتقادنا بأن النار محرقة ، والشمس مضيئة ، والماء له صفة السيلان ينحدر من أعلى إلى أدنى ، إلى غير ذلك

وترى أن هذا المسلك مسلك منطقي سليم ، ويفيدنا العلم اليقيني ، لأنه يعتمد على شهادة الحس وبداهته ، وتستطيع أن تسميه : (مسلك الإدراك الحسي ، فالعلم اليقيني ، فالاعتقاد الراسخ) .

ومثال ذلك كثير من علومنا ومعارفنا التي نعتقد بها اعتقاداً جازماً ، وهي من العلوم التي توصلنا إليها عن طريق الاستنتاج بمسلك منطقي رياضي . كاستنتاجنا مثلاً : بأن عدد الألف أكثر من عدد المائة ، وأن الكل أكبر من الجزء ، وأن حاصل ضرب ٥ في ٦ = ٣٠. وهذا يفيدنا العلم اليقيني قطعاً فالاعتقاد الراسخ.

فكل هذه الاستنتاجات في حدودها المعقولة نرى أنها تفيدنا العلم اليقيني أيضاً ؛ ثم تنتقل من خزائن العلم إلى مراكز الاعتقادات.

ونستطيع أن نسمي هذا المسلك الثاني : (مسلك الاستنتاج العقلي ، فالعلم اليقيني ، فالاعتقاد الراسخ) .

و هذان المسلكان هما الوسيلتان الواضحتان لاكتسابنا المعارف والعلوم المقترنة ببراهينها ؛ التي تقدم نفسها للمناقشة والاعتراض ، والأخذ والرد ، في كل الجزئية من جزئياتها .

القرآن والمسالك

❋ حث القرآن على استخدام مسلكي الإدراك الحسي القاطع والاستنتاج العقلي القاطع من مسالك اليقين : ولقد حث القرآن الإنسان على استخدام هذين المسلكين من مسالك اليقين الأول والثاني في آيات كثيرة .

فمنها ما يدفع الحواس الظاهرة والباطنة إلى إدراك الحقائق المعروضة في الكون . ومنها ما يهز

العقل هزات عنيفةً للبحث والتفكير ، والنظر والاعتبار ، و المناقشة والفهم

المسلك الثالث

عرفنا مما سبق كيفية اكتسابنا علوماً يقينية بالمسلكين الأول والثاني ، وكيف تتحول هذه العلوم اليقينية إلى اعتقادات راسخة، وهناك مسلك ثالث يأتي عن طريق الخبر الصادق :

فقد يقوم برهان العقل على أن مخبراً ما – فرداً كان أو جماعة ـ صادق قطعاً فيما يخبر به ؛ فيمر خبره على مراكز الإدراك للتأكد من صورة الخبر وفهم المراد منه ، ثم ينتقل مباشرة فيكون علماً يقينياً ، ثم يتحول إلى مراكز الاعتقادات فيكون عقيدة راسخة. ونستطيع أن نسمي هذا المسلك الثالث (مسلك الخبر الصادق ، فالعلم اليقيني ، فالاعتقاد الراسخ) .

أ – كلنا نعلم علماً يقينياً بوجود بلاد – مثلاً – اسمها الصين، دون أن نرى هذه البلاد ودون أن نستطيع بطريق العقل استنتاج وجودها ، وإنما وصلت إلينا الأخبار المتواترة بوجودها ؛ وكذلك نعلم علماً يقينياً بقيام الحرب العالمية الأولى ونحن لم نحضر هذه الحرب، ولم نشاهد وقائعها ، وإنما علمنا بها عن طريق الأخبار المتواترة ، ولو جاءنا رجل فقال لنا : لم تقع حرب عالمية أولى ، أو ليس في الدنيا بلاد الصين ، لكذبناه بلا أناة ، لأن خبره باعتباره آحاداً لا يقوى في أنفسنا على تضعيف الأخبار المتواترة .

ومن هذا نرى أن الأخبار المتواترة تفيدنا العلم اليقيني بداهة ، لأنه مستقر في نفوسنا أنه لا يمكن عقلاً أن تتفق على الكذب هذه الكثرة الكاثرة من المخبرين ؟ الذين اختلفت أحوالهم ، وتباينت أغراضهم ، وهم في حالة لا يجمعهم على الكذب جامع .

فنحن نجد أنفسنا مضطرين عقلاً أن نقبل خبرهم ، ونعتقد به حقيقة واقعة غير قابلة للشك ، وإلا حرمنا أكثر العلوم والمعارف ، وحرمنا إدراك أية حقيقة من حقائق التاريخ

ب ـ كما ثبت لدينا عقلاً صدق خبر الرسول ﷺ فيما يخبر به عن الله تعالى من أحكام ومن أمور الغيب ؛ وأن خبره يفيدنا العلم اليقيني قطعاً ، لأن الرسول مشهود له من قبل الله بلسان حال المعجزة التي يجريها الله على يديه أنه صادق فيما بخبر به عن ربه ؛ لأنه يخبر عن وحي وما ينطق

عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ، وكل ما يأتي به الوحي حق لا شك فيه .

وجل عقائدنا التي نعتقد بها في ديننا قد جاءتنا عن طريق الوحي ، نطق بها الرسول الصادق المؤيد من الله بالمعجزة .

فيجب عقلاً تصديق الرسول في كل ما يخبر به من أحكام الشريعة ومن أمور الغيب ؛ والاعتقاد به اعتقاداً جازماً باعتباره يفيد العلم اليقيني ، سواء أخبر به في نص آية من كتاب الله ، أو أخبر به بكلام من عنده ، لا فرق في ذلك مطلقاً ؛ لأن الله في كتابه شهد له بأنه لا ينطق عن الهوى .

فأصحاب الرسول الذين عاصروا الرسول ما كانوا يفرقون قط في التسليم بما يبلغه الرسول إليهم من أحكام وغيوب بين آية قرآنية يرويها وبين حديث يقوله من عنده.

وأما بالنسبة إلينا فحيث لم تسمع من الرسول ﷺ مباشرة ؛ بل سمعنا ممن رووا عنه – والذين رووا عنه ليسوا بمعصومين – وجدنا أنفسنا بحاجة إلى أن نفرق بين ما نقل لنا عن الرسول ﷺ بطريق متواتر يفيد العلم اليقيني ؛ وبين ما نقل لنا عنه بطريق الآحاد الذي لم يبلغ مبلغ التواتر ، ولا يفيد العلم اليقيني .

وبعد البحث والاستقراء رأينا أن كتاب الله تعالى بكل ما فيه منقول إلينا بطريق التواتر الذي يفيد صدق النقل عن الرسول قطعاً ؛ وذلك يفيدنا العلم اليقيني بأنه كلام الله ، ومن ثم فمضمونه القطعي يفيدنا العلم اليقيني ، فالاعتقاد الراسخ ..

وأما أحاديث الرسول ﷺ فبعضها القليل منقول عن الرسول بطريق التواتر ، فهو يفيدنا صدق النقل عن الرسول كالقرآن سواء بسواء ، ومن ثم فمضمونه القطعي يفيدنا العلم اليقيني به ، فالاعتقاد الراسخ ، كالقرآن أيضاً .

ولكن أكثر أحاديث الرسول منقولة إلينا بطريق الآحاد ؛ فإن كانت صحيحة أفادتنا غلبة الظن في صدق نقلها ، ومن ثم أفادتنا غلبة الظن في العلم بمضمونها القطعي ، وقد نعتقد بمضمونها اعتقاداً دون مرتبة اعتقادنا بما جاءنا عن الرسول بالتواتر.

ومن خلال الإيضاح السابق يتلخص لدينا ما يلي :

أ ـ أن الاعتقاد بصدق القرآن الكريم واجب عقلاً وشرعاً ؛ ومنكر أنه كلام الله كافر

ب ـ أن الاعتقاد بما دلّ عليه القرآن دلالة قطعية من أحكام وغيوب واجب عقلاً وشرعاً ؛ ومنكر ذلك كافر

ج ـ أن الاعتقاد بأن الأحاديث المتواترة واردة قطعاً عن الرسول واجب عقلاً وشرعاً ؛ ومنكر ذلك كافر .

د ـ أن الاعتقاد بما دلت عليه الأحاديث المتواترة دلالة قاطعة من أحكام وغيوب واجب عقلاً وشرعاً ؛ ومنكر ذلك كافر

هـ – أن أحاديث الآحاد التي تلقتها الأمة الإسلامية في عصورها الأولى بالقبول من غير نكير ؛ حكمها حكم الأحاديث المتواترة .

و – أنه يكفر من أنكر عقيدة ثبتت بنص قطعي النسبة إلى رسول الله ﷺ قطعي الدلالة على تلك العقيدة .

وأما من أنكر عقيدة ثبتت بدلالة ظنية في نص قطعي الثبوت ، أو ثبتت بدلالة قطعية في نص ظني الثبوت كالأحاديث الآحاد ، أو بدلالة ظنية في نص ظني الثبوت ، فإنه لا يكفر بذلك ؛ ولكنه إذا كان الظن غالباً ولم ينكر المنكر وفق حجة واضحة فإنه يكون فاسقاً عاصياً .

الخبر الصادق

الإسلام ومنهجه في الاعتماد على الأدلة النقلية والتثبت من الأخبار ، أو الإسلام ونظرية البحث العلمي في المستندات الإخبارية : ولما كان الخبر الصادق أصلاً كونياً ، وقاعدة إنسانية لا مندوحة من الاعتماد عليها في الحياة الاجتماعية ؛ للتعرف على كثير من الحقائق التي لا يمكن لكل فرد أن يباشر معرفتها بنفسه عن طريق الحس ، أو عن طريق الاستدلال العقلي ، فقد اعتمدت الشرائع الربانية عليه اعتماداً كلياً في نقل الأخبار الإلهية للناس ، وتبليغهم الأحكام والتكاليف الربانية ، وغير ذلك ، كما اعتمدت على الخبر في تحصيل كثير من العلوم التي توصل إليها العلماء بمسالكهم المنطقية ؛ وأمرت بسؤال أهل الذكر . قال تعالى في سورة (النحل) :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٤٣)﴾ [النحل]

حتمية صدق الخبر :

ولكن الإسلام وضع منهجاً سليماً للتحقق من سلامة الأخبار وصدقها فاشترط الحتمية صدق الخبر أن يأتي عن أحد مسلكين :

المسلك الأول : أن يرد الخبر على لسان الرسول ، وقد أحاط الله الرسل الذين يبلغون عن الله بوضع يجعل التسليم بنقولهم وأخبارهم قضية حتمية عند المنصفين من العقلاء ؛ ذلك بما صانهم به من العصمة عن الكذب وسائر المعاصي وبما أيدهم به من المعجزات الباهرات ، التي لا يأتي بها أو بمثلها إلا رسول مؤيد من عند الله ، ومصدق من قبله بلسان حال المعجزات.

المسلك الثاني : أن يخبر به جمع من الناس يستحيل في مقياس العقل السليم اتفاقهم على الكذب ويلحق به ما تواردت عليه مجموعة من شواهد النقول الإخبارية ، ودلائل الآثار الأرضية والكتابية ، وبعض الاستنتاجات النظرية ، حتى يصبح التسليم بمضمون الخبر أمراً حتمياً لا شك فيه لدى العقلاء المنصفين ، وحتى يصل في نفوسهم إلى درجة اليقين ، كخبر الجمع من الناس الذين يستحيل عقلاً تواطؤهم على الكذب.

وهذا المسلك أصل مقطوع به شرعاً وعقلاً ، وبه حفظ الله القرآن الكريم من التحريف والتبديل، إذ تكفل بحفظه في قوله تعالى في سورة (الحجر) ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)﴾

واشترط علماء الملة لأرجحية صدق الخبر أن يتوافر في كل راو له شرطان :

الشرط الأول : العدالة : وهي أن لا يعهد على الراوي الكذب والمعصية الظاهرة

الشرط الثاني : الأهلية الفكرية لتحمل الأخبار ونقلها على وفق ما حملها ، دون نسيان أو اضطراب .

الفطرة

إذا عرفنا المسالك الثلاثة السابقة التي تفيدنا العلم اليقيني في عقيدة ما ، وعرفنا أنه يمكن لنا أن نقيم بواحد منها الحجة القاطعة على المنكرين، فلا يفوتنا أن ننتبه إلى أن هناك مسلكاً رابعاً قد يصلح للمعتقد نفسه ، ولكنه لا يغنيه في إقامة الحجة على الآخرين ، إلا إذا كان من الأمور التي يشهد الناس بصدقها .. ألا وهو (مسلك الإضاءة الفطرية ، والإشراق الروحي) .

فإننا نرى أن هناك كثيراً من الأفكار التي تصل إلى مرتبة العقيدة الراسخة ؛ بما لها من تأثيرات تصل إليها ، دون أن تمر بمراحل الإدراك الحسي فالعلم فالاعتقاد ؛ ودون أن تمر بمراحل الاستنتاج العقلي فالعلم فالاعتقاد ؛ ودون أن تمر بمراحل الخبر الصادق فالعلم فالاعتقاد .

ولكنها تتخذ طريقاً آخر إلى مراكز الاعتقادات ، فقد تتخذ طريق الإضاءة الفطرية والإشراق الروحي ، دون أن يستطيع صاحبها إقامة الدليل المادي على ما يعتقد به ، وكثيراً ما يكون صادق الفطرة والإشراق ، بدليل موافقة إشراقه الخاص لنتائج مسالك الآخرين البرهانية اليقينية .

قصة طريفة للفخر الرازي

❊ مر الفخر الرازي في الطريق وحوله أتباعه وتلامذته الكثيرون ، فرأته عجوز مؤمنة في جانب الطريق ، فسألت عنه فقالوا : هذا الفخر الرازي الذي يعرف ألف دليل ودليل على وجود الله تعالى ؛ فقالت بفطرتها : لو لم يكن عنده ألف شك وشك لما احتاج إلى ألف دليل ودليل ، فنقلت كلمتها هذه إلى الفخر الرازي عليه رحمة الله ، فقال : اللهم إيماناً كإيمان العجائز ! !

ومن هذا نرى أن هذه المرأة المؤمنة قد أدركت بإشراق روحها ، وصفاء فطرتها ، وجود الله وكمال صفاته، ولم تحتج إلى مناقشات كثيرة ، ولا إلى ردّ شكوك ، وتمركزت في أعماقها عقيدة صحيحة سليمة ، لا تستطيع قوة في الدنيا أن تزحزحها وكان طريقها لعقيدتها وإيمانها طريقا مقبولا منها وصحيحا لا شائبة فيه.

(الأحكام العقلية والأحكام العادية)

كل ما يتصوره الفكر لا يخلو أن يكون واحداً من الأقسام الثلاثة التالية :

١- الممكن الوجود :

هو ما يقبل العقل إمكان وجوده وعدمه ، ولو في حالة من الحالات التي يتصورها الذهن ، وضمن شروط معينة ، وطبق أنظمة خاصة ، وهذا القسم يسمى : (جائز الوجود) أو (ممكن الوجود عقلاً)، لأن وجوده أو عدمه ليس واجباً في العقل ولا مستحيلاً ؛ كالمريض قد يبرأ وقد لا يبرأ من دواء معين أو مرض معين .

٢- المستحيل الوجود :

هو ما يوجب العقل عدمه، ولا يجيز إمكان وجوده في أية حالة من الحالات التي يتصورها الذهن ، مهما تسامح في تخيل الشروط المناسبة لقبول وجوده معها ، وهذا القسم يسمى : (مستحيل الوجود عقلاً) ؛ كمثل وجود شخص في مكانين في نفس الزمان والوقت .

واجب الوجود :

هو ما يوجب العقل وجوده ، ولا يجيز إمكان انعدامه في أية حالة من الحالات التي يتصورها الذهن ، مهما تسامح في تخيل الشروط المناسبة لقبول عدمه معها . وهذا القسم يسمى : (واجب الوجود عقلاً) . كطارق الباب فالعقل يرفض أن يطرق بدون فاعل .

مزيد من الأمثلة :

أولاً - أمثلة ممكن الوجود عقلاً:

١ ـ نحن البشر موجودون على سطح الأرض بشكل واقعي ، ولكن العقل يرى أنه كان من الممكن ألا نكون موجودين فوجودنا إذن أمر ممكن عقلاً لا واجب .

كما أنه كان من الممكن أن نكون على غير هذه الصورة التي نحن عليها : مزودين بغير الطاقات التي نحن عليها ، فاتصافنا بصفاتنا التي نحن عليها أمر ممكن عقلاً لا واجب .

٢ ـ النار محرقة أمر مشاهد في الكون ، فإذا تركنا العقل يفكر ويتأمل في العلاقة بين النار

والإحراق ، فإنه لا يرى أي ارتباط عقلي خاص بين الإحراق وبين النار ، إلا أنه تكررت لديه في المشاهدة العادية للموجودات مشاهدة أن النار تحرق ، فأثبت لها هذه الصفة من المشاهدة ، وأسند الأمر إلى أن المنظم لهذا الكون أعطاها هذه الصفة .

أما العقل بذاته فلا يرى مانعاً عقلياً من أن تكون النار غير محرقة لو وجدت كذلك ؛ أو أن تكون المواد التي تلامسها النار فتحرقها غير قابلة لـ للاحتراق وذلك لأنه لا يوجد ارتباط عقلي بين النار وبين الإحراق .. إذن : فكون النار محرقة أمر ممكن في العقل وليس بواجب .

٣- الأحياء التي نشاهدها إذا ماتت لا تعود إلى الحياة بعد موتها بحسب العادة المألوفة ؛ لكن العقل لا يمنع من أن تعود الأجساد إلى الحياة بعد موتها ، ولوا أننا لم نشاهد بأعيننا ميتاً رجع حياً ، جُلَّ ما في الأمر أن العقل يوجب العودة الحياة وجود القوة المكافئة التي تتولى هذه الإعادة إذن : فالعودة إلى الحياة بعد الموت امر ممكن عقلاً وليس بمستحيل

٤ ـ اجتياز الإنسان المسافات البعيدة في أقطار الأرض أو السماء بطرفة عين أمر ممكن عقلاً ؛ ولو أننا لا نستطيع أن نفعل ذلك بحسب العادة ، لكن لا العقل يمنع من أن يحصل هذا الاجتياز إذا تهيأت الشروط الملائمة ، ووجدت القوة المكافئة له ، فهو إذن : أمر ممكن عقلاً وليس بمستحيل .

٥- رفع جبل كبير وتثبيته في الجو بين السماء والأرض أمر ممكن عقلاً ولو أننا تنكر ذلك بحسب مجرى العادات ؛ لكنه إذا تهيأت القوة المكافئة لرفع الجبل أمكن حدوث ذلك ، فرفع الجبل أمر ممكن عقلاً وليس بمستحيل في حكم العقل .

٦ - انقلاب الجماد إلى حيوان أمر ممكن عقلاً ، ولو أننا بحسب العادة المستمرة لا نشاهد جمادات تنقلب إلى حيوانات ، لكن العقل يحكم بأنه متى تهيأت الشروط الملائمة لهذا التحويل أمكن حصوله ، فهو إذن : أمر ممكن عقلاً وليس بمستحيل .

٧ - وهكذا كل موجود - سوى الله تعالى - فوجوده وصفاته ، وكذلك انعدامه وانعدام صفاته أمور ممكنة عقلاً وليس شيء منها ـ في حكم العقل المجرد ـ بواجب في العقل ولا مستحيل .

ثانياً – أمثلة مستحيل الوجود عقلاً :

١ – الشيء الواحد من جهة واحدة ، وفي مكان محدد ، وزمان محدد ، وبصفة معينة ؛ يستحيل في حكم العقل أن يكون موجوداً ومعدوماً معاً ، مهما حاولنا أن نفترض الفروض البعيدة ، ونتسامح في تخيل الشروط الملائمة ، فالعقل لا يقبل جواز ذلك بحال ، لأن الوجود والعدم وصفان متناقضان تمام التناقض ، فمتى وجد أحدهما انتفى الآخر لا محالة ومتى انتفى أحدهما ثبت الآخر لا محالة، وجمع المتناقضين في شيء واحد ، من جهة واحدة ، في مكان واحد ، وزمان واحد ، أمر مستحيل عقلاً .

أما إذا انفكت الجهة أو اختلف الزمان ؛ فإنه لا استحالة ، وذلك لعدم افتراض جمع المتناقضين معا . فقد يكون الشيء الواحد موجوداً في زمان معدوماً في زمان آخر وموجودا في مكان منعدماً وجوده في مكان آخر ، وهكذا .

٢ – الجزء من الشيء الواحد يستحيل عقلاً أن يكون أكبر من كل ذلك الشيء ؛ لأن الكل مشتمل على جميع حدود الجزء وزيادة جزء آخر أو أجزاء آخر؛ فكيف يكون الشيء وحده أكبر منه مضافاً إليه شيء آخر ، مع احتفاظه بحدوده دون تغيير شيء فيه ؟! إنه لا يمكن أن يكون مثلاً عدد الخمسة أكثر من عدد العشرة بحال من الأحوال ؛ لأن العشرة هي خمسة أضيف إليها خمسة أخرى .

٣ – الدجال له عين عمياء ، وهذه العين العمياء يستحيل عقلاً أن تكون عمياء وأن تكون أيضاً في الوقت ذاته من الدجال نفسه بصيرة غير عمياء. إن العقل يحكم باستحالة ذلك ، لأن في القضية دعوى اجتماع نقيضين مع : اتحاد الشخص صاحب العين ، والعين والزمان في توارد النقيضين اللذين متى وجد : أحدهما انعدم الآخر لا محالة ؛ ومتى انعدم أحدهما وجد الآخر لا محالة.

٤ – من القواعد الفلسفية العقلية :

أ – يستحيل عقلاً اجتماع النقيضين في شيء واحد وزمان واحد ؛ ولهذه القاعدة تطبيقات كثيرة

ب ترجيح أحد المتساويين تساوياً تاماً على الآخر من غير مرجح مستحيل عقلا ؛ لهذه القاعدة تطبيقات كثيرة أيضاً لا تخفى على المتأمل .

ج- توقف وجود الشيء على وجوده نفسه ، أو توقف انعدام الشيء على انعدامه نفسه ، أمر مستحيل عقلاً

* مثال ذلك : كأن تقول : والله لا أدخل الدار حتى آخذ منك ألف درهم ، ثم تقول عقب ذلك لمخاطبك نفسه : والله لا آخذ منك ألف درهم حتى أكون داخل الدار .

فقد علقت دخول الدار على أخذك ألف درهم من مخاطبك ، ثم علقت أخذ الدراهم منه على كونك داخل الدار ، فأصبحت القضية مستحيلة الحل ، وذلك لتوقف الشيء على نفسه

* مثال آخر : ادعى مدع أن شيئاً معدوماً قد أوجد نفسه من العدم ، قلنا له : هذا مستحيل عقلاً وذلك أنه لا يمكن أن يوجد شيء نفسه ـ حسب الادعاء ـ ما لم يكن موجوداً ، لأن الإيجاد يحتاج إلى قوة موجودة ، ولا يمكن أن يكون موجوداً ـ حسب الادعاء ـ حتى يوجد نفسه ، فتوقف وجود الشيء المعدوم على وجوده نفسه ، وهذا مستحيل عقلاً .

وقد يخفى هذا التوقف في بعض صوره على بعض الناس متى كثرت الوسائط بين الشيء وبين توقفه على نفسه ؛ ومن أمثلة ما كثرت فيه الوسائط : أن نفترض أربعة أشخاص هم : خالد وسعيد وأحمد ومروان ، عرض عليهم أن يساهموا في مشروع خيري ، فقال خالد : والله لا أبذل لهذا المشروع حتى يبذل له سعيد ، ثم قال سعيد : والله لا أبذل لهذا المشروع حتى يبذل له أحمد فابتدر أحمد وقال : والله لا أبذل لهذا المشروع حتى يبذل له مروان ، فقال مروان بهدوء : والله لا أبذل لهذا المشروع حتى يبذل له خالد .

وهكذا توقف بذل خالد للمشروع على أن يبذل هو ، وذلك بعد أن دارت . القضية بالوسائط ورجعت إليه ، وامتنع الكل من البذل ، وهذا ما يسمى في عرف علماء الفلسفة والمنطق (بالدور السبقي) ، ويعرفونه بتوقف الشيء على نفسه ، وهو مستحيل عقلاً .

٥- العقل يحكم بأن الله واحد لا شريك له وذلك بالبراهين والأدلة الكثيرة ، فوجود شريك لله

تعالى مكافىء له أمر مستحيل عقلاً ، لا يمكن قبوله بحال من الأحوال .

ثالثاً ـ أمثلة واجب الوجود عقلاً :

ينحصر وجوب الوجود في الخالق جل وعلا وفي صفاته العلية ، وقد قام الدليل العقلي على أن وجود الخالق العظيم واجب ، وأنه يستحيل عدمه ، لأن العقل لا يجيز بحال أن يكون العدم هو الأصل ضد الوجود ، إذ لو كان الأصل لاستحال أن يتحول العدم بنفسه إلى وجود ؛ بما فيه من ذوات وصفات وقوى .

الأحكام العادية

عرفنا الأحكام العقلية فيما سبق ، وتُناظرها تماماً الأحكام العادية ، إلا أننا في الأحكام العادية لا نراقب ما يحكم به العقل بشكل مستقل ؛ وإنما ننظر إلى النظام القائم بحسب العادة الجارية .

فالممكن في العادة : هو كل أمر يصح أن يوجد ويصح أن لا يوجد مجرى العادات ، لأننا نشاهد وجوده مرة وعدم وجوده أخرى ؛ فيمكن مثلاً : أن ينزل المطر في شهر كانون ويمكن أن لا ينزل ؛ ويمكن أن تهب الرياح العاتية في الصيف ويمكن أن لا تهب ، إلى غير ذلك من أمثلة لا تحصى.

والمستحيل في العادة : هو كل أمر يخالف القانون المتبع باستمرار في نظام الكون ، وكثيراً ما يكون هذا الأمر المستحيل في العادة أمراً ممكناً في العقل ؛ لكن النظام المستمر في الكون – الذي لم نلاحظ تخلفه – جعل هذه الأمور من المستحيلات في مألوف الناس وما اعتادوا مشاهدته باستمرار دون تخلف ، كإحياء الموتى ، وتحويل العصا حية تسعى .

والواجب في العادة : هو ضد المستحيل في العادة ، وهو كل موجود لم نلاحظ في العادة تخلفه ، كآثار قانون الجاذبية ، ونظام خروج النبات من الأرض إلى غير ذلك من أنظمة لم نشاهد تخلفها وهذا الواجب وجوده في العادة هو من الأمور الممكنة عقلاً .

﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦] ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ﴾ [الطلاق: ٧] ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦) ﴾ [الحج]

في سنن أبي داود: عن علي، عن النبيِّ ﷺ قال: "رُفِعَ القلم عن ثلاثةٍ: عن النَّائم حتى يستيقظَ، وعن الصَّبيِّ حتى يَحتَلِمَ، وعن المجنونِ حتى يَعقِلَ"

وفي سنن النسائي عَنْ عَائِشَةَ : عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثٍ: عَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنِ الصَّغِيرِ حَتَّى يَكْبَرَ، وَعَنِ الْمَجْنُونِ حَتَّى يَعْقِلَ أَوْ يُفِيقَ.

في حقيقة العقل

وقد اختُلف فيها. فقيل: هو قوّةٌ غريزيّةٌ توجَد في الإنسان مِن أوّلِ وجوده. ثمّ تتزايد بتزايد بدنه تَزايُدًا تدريجيًّا، حتى يبلغ سنَّ التكليف، فتكون قد بَلَغَت أوّلَ درجات كمالها ، ثمّ تنتهي زيادتُها إلى سبعٍ وعشرين سنةً، كما رُوي عن أمير المؤمنين عليٍّ ﷺ : " يحتلم الغلامُ لأربع عشرة، وينتهي طولُه لإحدى وعشرين، وينتهي عقلُه لسبعٍ وعشرين. إلاّ التجاريب، فإنّه لا غاية لها". هذا في العقل الغريزي. أمّا التجريبّ، فلا يزال في زيادة ما دام العاقل حيًّا؛ كما قال علي .

قال ابن الجوزي في ذم الهوى : فِي ذِكْرِ الْعَقْلِ وَفَضْلِهِ وَذِكْرِ مَاهِيَّتِهِ :

اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي مَاهِيَّةِ الْعَقْلِ اخْتِلافًا كَثِيرًا، فَقَالَ قَوْمٌ هُوَ ضَرْبٌ مِنَ الْعُلُومِ الضَّرُورِيَّةِ، وَقَالَ آخَرُونَ هُوَ غَرِيزَةٌ يَتَأَتَّى مَعَهَا دَرْكُ الْعُلُومِ، وَقَالَ آخَرُونَ هُوَ قُوَّةٌ يُفَضَّلُ بِهَا بَيْنَ حَقَائِقِ الْمَعْلُومَاتِ وَقَالَ آخَرُونَ هُوَ جَوْهَرٌ بَسِيطٌ وَقَالَ قَوْمٌ هُوَ جِسْمٌ شَفَّافٌ ، وَقَالَ الْحَارِثُ الْمُحَاسِبِيُّ هُوَ نُورٌ .
وعَنْ أَحْمَدَ أَنَّهُ قَالَ الْعَقْلُ غَرِيزَةٌ .

وَالتَّحْقِيقُ فِي هَذَا أَنْ يُقَالَ الْعَقْلُ غَرِيزَةٌ كَأَنَّهَا نُورٌ يُقْذَفُ فِي الْقَلْبِ فَيَسْتَعِدُّ لِإِدْرَاكِ الأَشْيَاءِ فَيَعْلَمُ جَوَازَ الْجَائِزَاتِ وَاسْتِحَالَةَ الْمُسْتَحِيلاتِ وَيَتَلَمَّحُ عَوَاقِبَ الأُمُورِ؛ وَذَلِكَ النُّورُ يَقِلُّ وَيَكْثُرُ وَإِذَا قَوِيَ ذَلِكَ النُّورُ قَمَعَ بِمُلاحَظَةِ الْعَوَاقِبِ عَاجِلَ الْهَوَى.

ذِكْرُ مَحِلِّ الْعَقْلِ

يقول ابن الجوزي : أَكْثَرُ أَصْحَابِنَا يَقُولُونَ مَحِلُّهُ الْقَلْبُ وَهُوَ مَرْوِيٌّ عَنِ الشَّافِعِيِّ ﷺ وَدَلِيلُهُمْ قَوْلُهُ تَعَالَى {فَتكون لَهُم قُلُوب يعْقلُونَ بهَا} وَقَوْلُهُ {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لمن كَانَ لَهُ قلب} قَالُوا الْمُرَادُ لِمَنْ كَانَ لَهُ عَقْلٌ فَعَبَّرَ بِالْقَلْبِ عَنِ الْعَقْلِ لأَنَّهُ مَحِلُّهُ، وَنَقَلَ الْفَضْلُ بْنُ زِيَادٍ عَنْ أَحْمَدَ ﷺ نَّ مَحِلَّهُ الدِّمَاغُ ، وَهُوَ اخْتِيَارُ أَصْحَابِ أَبِي حَنِيفَةَ ﷺ .

قَالَ أَبُو حَاتِمِ بْنُ حِبَّانَ الْحَافِظُ لَسْتُ أَحْفَظُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ خَبَرًا صَحِيحًا فِي الْعَقْلِ .

قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: لَيْسَ الْعَاقِلُ مَنْ يَعْرِفُ الْخَيْرَ مِنَ الشَّرِّ وَلَكِنَّهُ الَّذِي يَعْرِفُ خَيْرَ الشَّرَّيْنِ .

وَقِيلَ لِعَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ مَا أَفْضَلُ مَا أُعْطِيَ الإِنْسَانُ قَالَ الْعَقْلُ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى .

وَسُئِلَ ابْنُ الْمُبَارَكِ مَا خَيْرُ مَا أُعْطِيَ الرَّجُلُ قَالَ : غَرِيزَةُ عَقْلٍ ، قِيلَ : فَإِنْ لَمْ يَكُنْ قَالَ: أَدَبٌ حَسَنٌ قِيلَ : فَإِنْ لَمْ يَكُنْ قَال : أَخٌ صَالِحٌ يَسْتَشِيرُهُ قِيلَ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ قَالَ :صَمْتٌ طَوِيلٌ قِيلَ : فَإِنْ لَمْ يَكُنْ قَالَ: مَوْتٌ عَاجِلٌ .

إِنَّمَا تَتَبَيَّنُ فَضِيلَةُ الشَّيْءِ بِثَمَرَتِهِ وَفَائِدَتِهِ وَقَدْ عَرَفْتُ ثَمْرَةَ الْعَقْلِ وَفَائِدَتَهُ فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي دَلَّ عَلَى الإِلَهِ وَأَمَرَ بِطَاعَتِهِ وَامْتِثَالِ أَمْرِهِ وَثَبَتَ مُعْجِزَاتِ الرُّسُلِ وَأَمْرَ بِطَاعَتِهِمْ وَتَلَمَّحَ الْعَوَاقِبَ فَاعْتَبَرَهَا فَرَاقَبَهَا وَعَمِلَ بِمُقْتَضَى مَصَالِحِهَا وَقَاوَمَ الْهَوَى فَرَدَّ غُرَبَهُ وَأَدْرَكَ الأُمُورَ الْغَامِضَةَ وَدَبَّرَ عَلَى اسْتِخْدَامِ الْمَخْلُوقَاتِ فَاسْتَخْدَمَهَا وَحَثَّ عَلَى الْفَضَائِلِ وَنَهَى عَنِ الرَّذَائِلِ وَشَدَّ أَسْرَ الْحَزْمِ وَقَوَّى أَزْرَ الْعَزْمِ وَاسْتَجْلَبَ مَا يَزِينُ وَنَفَى مَا يَشِينُ فَإِذَا تُرِكَ وَسُلْطَانَهُ أَسَرَ فُضُولَ الْهَوَى فَحَصَرَهَا فِي حَبْسِ الْمَنْعِ وَكَفَى بِهَذِهِ الأَوْصَافِ فَضِيلَةً .

تعريفه في الموسوعات المعاصرة

العقل هو مجموعة من القوى الإدراكية التي تتضمن الوعي ، المعرفة ، التفكير، الحكم اللغة والذاكرة هو غالبًا ما يعرف بملكة الشخص الفكرية والإدراكية. يملك العقل القدرة على التخيل، التمييز، والتقدير، وهو مسؤول عن معالجة المشاعر والانفعالات، مؤديًا إلى مواقف وأفعال، هنالك جدال في الفلسفة، الدين، والعلوم الاستعرافية حول ماهية العقل

وصفاته المميزة.

هو الغريزة التي في الإنسان، والتي يمتاز بها عن سائر الحيوان؛ فبها يعلم، وبها يعقل، وبها يميز، وبها يقصد المنافع دون المضار. وأما في الاصطلاح فهو – كما يقول الفيروزبادي _: نور روحاني، به تدرك النفس العلوم الضرورية، والنظرية.

وظيفة العقل: العقل نور أودعه الله في الإنسان؛ ليكشف به الأشياء، والحقائق الواقعة، وليفهم به عن الله ورسوله " ولينظر من خلاله في ملكوت السموات والأرض، وليدرك به أسرار الكون، ويتدبر في نفسه وآيات الله من حوله، ويصل من خلاله إلى كثير من أمور الاعتقاد في حدود طاقته، ويبحث من طريقه إلى ما يعود عليه بالنفع في دينه ودنياه.

المحكوم عليه في أصول الفقه

المحكوم عليه: هو المكلف الذي تعلق حكم الشارع بفعله.

ويشترط في المكلف لصحة تكليفه شرعا شرطان:

أحدهما: أن يكون قادرا على فهم دليل التكليف، بأن يكون في استطاعته أن يفهم النصوص القانونية التي يكلف بها من القرآن والسنة بنفسه أو بالواسطة، لأن من لم يستطيع فهم دليل التكليف لا يمكنه أن يمتثل ما كلف به ولا يتجه قصده إليه والقدرة على فهم أدلة التكليف إنما تتحقق بالعقل وبكون النصوص التي يكلف بها العقلاء في متناول عقولهم فهمها، لأن العقل هو أداة الفهم والإدراك، وبه تتوجه الإرادة إلى الامتثال.

ولما كان العقل أمرا خفيا لا يدرك بالحس الظاهر، ربط الشارع التكليف بأمر ظاهر يدرك بالحس هو مظنة للعقل وهو البلوغ ، فمن بلغ الحلم من غير أن تظهر عليه أعراض خلل بقواه العقلية فقد توافرت فيه القدرة على أن يكلف.

وعلى هذا لا يكلف المجنون ولا الصبي لعدم وجود العقل الذي هو وسيلة فهم دليل التكليف، ولا يكلف الغافل والنائم والسكران ؛ لأنهم في حال الغفلة أو النوم أو السكر ليس في استطاعتهم الفهم. ولهذا قال رسول الله – ﷺ – "رفع القلم عن ثلاثة: النائم حتى يستيقظ،

وعن الصبي حتى يحتلم، وعن المجنون حتى يعقل"، وقال عليه السلام: "من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها فإن ذلك وقتها".

وأما إيجاب الزكاة والنفقة والضمان على الصبي والمجنون فليس تكليفا لهما، وإنما هو تكليف الولي عليهما بأداء الحق المالي المستحق في مالهما، كأداء ضريبة أطيانهما وأملاكهما.

وأما قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ} [النساء: ٤٣] ، فليس تكليفا للسكارى حتى سكرهم بأن لا يقربوا الصلاة، وإنما هو تكليفا للسكارى حين سكرهم بأن لا يقربوا الصلاة، وإنما هو تكليف للمسلمين في حال صحوهم أن لا يشربوا الخمر إذا دنا وقت الصلاة حتى لا يقربوا الصلاة وهم سكارى، فكأنه سبحانه قال: إذا دنا وقت الصلاة فلا تشربوا الخمر، وأما إيقاع طلاق السكران على مذهب الحنفية هو عقاب له على سكره، ولهذا شرطوا أن يكون جانياً بسكره بأن شرب محرما طائعا.

الجهلاء بلغة التكليف

وأما من لا يعرفون اللغة العربية ولا يستطيعون فهم أدلة التكليف الشرعية من القرآن والسنة، كاليابانيين والهنود والجاويين وغيرهم فهؤلاء لا يصح تكليفهم شرعاً إلا إذا تعلموا اللغة العربية واستطاعوا أن يفهموا نصوصا، أو ترجمت أدلة التكليف الشرعية إلى لغتهم، بحيث يستطيعون أن يجدوا كتابا دينيا بلغتهم يبين لهم ما يكلفهم به الإسلام، أو قامت طائفة بتعلم لغات هذه الأمم التي لا تعرف اللغة العربية ونشرت بينهم تعاليم الإسلام وأدلته التكليفية مخاطبة لهم بلغتهم، وهذا الطريق الثالث هو الطريق القويم؛ لأن الرسول – ﷺ – في خطبته يوم حجة الوداع أشهد الله أنه بلغ رسالته، وأمر المسلمين أن يبلغ منهم الشاهد الغائب؛ والشاهد يشمل كل من اهتدى إلى الإسلام وعرف أحكامه، والغائب يشمل كل من لم يعرف لغة القرآن ولم يستطع فهم آياته.

فأما إذا ترك هذا الغائب على حالة لا يعرف لغة القرآن ولا يستطيع أن يفهم دلائله، ولا ترجمت آياته إلى لغته، ولا قام أحد يعرف لغة القرآن بتعليمه ما يكلف به باللغة التي يفهمها؛ فهو شرعا

غير مكلف، لأن الله لا يكلف نفسها إلا وسعها، ولهذا قال الله تعالى في سورة إبراهيم: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ} [إبراهيم:٤]

وثانيهما: أن يكون أهلا لما كلف به.

والأهلية معنا ها في اللغة: الصلاحية، يقال فلان أهل للنظر على الوقف أي صالح له.

وأما في اصطلاح الأصوليين فالأهلية تنقسم إلى قسمين: أهلية وجوب، وأهلية أداء.

فأهلية الوجوب: هي صلاحية الإنسان لأن تثبت له حقوق وتجب عليه واجبات، وأساسها الخاصة التي خلق الله عليها الإنسان واختصه بها من بين أنواع الحيوان، وبها صلح لأن تثبت له حقوق وتجب عليه واجبات، وهذه الخاصة هي التي سماها الفقهاء الذمة، فالذمة هي الصفة الفطرية الإنسانية التي به ثبتت للإنسان حقوق قبل غيره، ووجبت عليه واجبات لغيره.

وأما أهلية الأداء: فهي صلاحية المكلف لأن تعتبر شرعا أقواله وأفعاله، بحيث إذا صدر منه عقد أو تصرف كان معتبرا شرعا وترتبت عليه أحكامه، وإذا صلى أو صام أو حج أو فعل أي واجب كان معتبرا شرعا ومسقطا عنه الواجب، وإذا جنى على غيره في نفس أو مال أو عرض أخذ بجنايته وعوقب عليها بدنيا وماليا فأهلية الأداء هي المسئولية وأساسها في الإنسان التمييز بالعقل.

حالات الإنسان بالنسبة لأهلية الوجوب

الإنسان بالنسبة لأهلية الوجوب له حالتان اثنتان فقط:

فقد تكون له أهلية وجوب ناقصة إذا صلح لأن تثبت له حقوق، لا لأن تجب عليه واجبات، أو العكس، ومثلوا للأول بالجنين في بطن أمه فإنه تثبت له حقوق لأنه يرث ويوصى له ويستحق في ريع الوقف ولكن لا تجب عليه لغيره واجبات، فأهلية الوجوب الثابتة له ناقصة، ومثلوا للثاني بالميت، إذا مات مدنيا فإنه تبقى عليه حقوق دائنيه، بل إن بعض الفقهاء اعتبر للميت بعد موته أهلية وجوب كاملة، إذا مات دائنا ومدنيا فتكون له حقوق على مدينيه، وعليه حقوق لدائنيه، وهذا كلام لا وجه له، والحق أن الموت قضى على خاصة الإنسان، فليست له ذمة أو

أهلية وجوب كاملة ولا ناقصة، وأما مطالبة مدينيه بما عليهم من الديون فلأنها صارت حقا للورثة، والورثة خلفوا مورثهم فيما كان له، وفيما كان عليه في حدود ما تركه، وبعبارة أخرى ورثوا ماله من ديون على غيره ن وآلت إليهم تركته مشغولة بديون لغيره.

وقد تكون له أهلية وجوب كاملة إذا صلح لأن تثبت له حقوق وتجب عليه واجبات، وهذه تثبت لكل إنسان من حين ولادته، فهو في طفولته وفي سن تمييزه وبعد بلوغه، على أية حال كان في أي طور من أطوار حياته له أهلية وجوب كاملة. وكما قدمنا لا يوجد إنسان عديم أهلية الوجوب.

حالات الإنسان بالنسبة لأهلية الأداء

الإنسان بالنسبة لأهلية الأداء له حالات ثلاث:

١- قد يكون عديم الأهلية للأداء أصلا، أو فاقدها أصلا. وهذا هو الطفل في زمن طفولته، والمجنون في أي سن كان. فكل منهما لكون لا عقل له لا أهلية أداء له، ولك منهما لا تترتب عليه آثار شرعية على أقواله ولا على أفعاله، فعقوده وتصرفاته باطلة، غاية الأمر إذا جنى أحدهما على نفس أو مال يؤاخذ ماليا لا بدنيا، فإن قتل الطفل أو المجنون أو أتلف مال غيره ضمن دية القتيل أو ما أتلفه، ولكنه لا يقتص منه، وهذا معنى قول الفقهاء: "عمد الطفل أو المجنون خطأ"، لأنه مادام لا يوجد العقل لا يوجد القصد فلا يوجد العمد.

٢- وقد يكون ناقص الأهلية للأداء: وهو المميز الذي لم يبلغ الحلم، وهذا يصدق على الصبي في دور التمييز قبل البلوغ، ويصدق على المعتوه، فإن المعتوه ليس مختل العقل ولا فاقده ولكنه ضعيف العقل ناقصة، فحكمه حكم الصبي المميز.

وكل منهما لوجود وثوب أصل أهلية الأداء له بالتمييز تصح تصرفاته النافعة له نفعا محضا، كقبوله الهبات والصدقات بدون إذن وليه.

وأما تصرفاته الضارة له ضررا محضا، كتبرعاته، وإسقاطاته، فلا تصح أصلا ولو أجارها وليه، فهبته، ووصيته ووقفه وطلاقه وإعتاقه كل هذه باطلة ولا تلحقها إجازة وليه. وأما تصرفاته

الدائرة بين النفع له والضرر به، فتصح منه ولكنها تكون موقوفة على إذن وليه بها، فإن جاز وليه العقد أو التصرف نفذ، وإن لم يجزه بطل.

فصحة أصل هذه العقود والتصرفات من المميز أو المعتوه مبينة على ثبوت أصل أهلية الأداء له، وعلها موقوفة على إذن أولي مبنى على نقص هذه الأهلية، فإذا انضم إذن الولي أو إجازته إلى التصرف جبر هذا النقص فاعتبر العقد أو التصرف من ذي أهلية كاملة.

٣- وقد يكون كامل الأهلية للأداء: وهو من بلغ الحلم عاقلا. فأهلية الأداء الكاملة تتحقق ببلوغ الإنسان عقالا.

والأصل أن أهلية الأداء بالعقل ولكنها ربطت بالبلوغ لأن البلوغ مظنة العقل، والأحكام تربط بعلل ظاهرة منضبطة، فالبالغ سواء كان بلوغه بالسن أو بالعلامات يعتبر عاقلا وأهلا للأداء كامل الأهلية ما لم يوجد ما يدل على اختلال عقله أو أنقصه.

عوارض الأهلية

قدّمنا أن أهلية الوجوب تثبت للإنسان، وأنه وهو جنين في بطن أمه تثبت له أهلية وجوب ناقصة، وبعد ولادته تثبت له أهلية وجوب كاملة في طفولته وفي سن تمييزه وبعد بلوغه وفي نومه ويقظته وفي جنونه وإفاقته، وفي رشده وسفهه، وما دام حيا لا يعرض لهذه الأهلية ما يزيلها أو ينقصان.

وأما أهلية الأداء فقد قدمنا أنها لا تثبت للإنسان وهو جنين قبل أن يولد، ولا هو طفل لم يبلغ السابعة، وأنه من سن التمييز أي بعد السابعة إلى سن البلوغ أي خمس عشرة سنة تثبت له أهلية أداء ناقصة، ولهذا تصح بعض تصرفاته ولا يصح بعضها، ويتوقف بعضها على إذن الولي أو إجازته. وإنه من سن بلوغه الحلم تثبت له أهلية أداء كاملة غير أن هذه الأهلية قد تعرض لها عوارض، منها ما هو عارض سماوي لا كسب للإنسان فيه ولا اختيار، كالجنون والعته والنسيان، ومنها ما هون عارض كسبي يقع بكسب الإنسان واختياره كالسكر والسفه والدين.

العوارض التي تعرض لأهلية الأداء

❋منها ما يعرض للإنسان فيزيل أهليته للأداء أصلا كالجنون والنوم والإغماء، فالمجنون والنائم والمغمي عليه ليس لواحد منهم أهلية أداء أصلا، ولا تترتب على تصرفاته آثارها الشرعية، وما وجب على المجنون بمقتضى أهليته للوجوب من واجبات مالية يؤديها عنه وليه، وما وجب على النائم والمغمى عليه بمقتضى أهليتهما للوجوب من واجبات بدنية أو مالية يؤديها كل منهما بعد يقظته أو إفاقته.

❋ومنها ما يعرض للإنسان فيقض أهليته للأداء ولا يزيلها كالعته، ولهذا صحت بعض تصرفات المعتوه دون بعضها كالصبي المميز.

❋ومنها ما يعرض للإنسان فلا يؤثّر في أهليته لا بإزالتها ولا بنقصها، ولكن يغير بعض أحكامه لاعتبارات ومصالح قضت بهذا التغيير، لا لفقد أهلية أو نقصها كالسفه، والغفلة، والدين، فكل من السفيه وذي الغفلة بالغ عاقل له أهلية أداء كاملة، ولكن محافظة على مال كل منهما من الضياع، ومنعا من أن يكون كل منهما عالة على غيره حجر عليهما في التصرفات المالية فلا تصح معاوضة مالية منهما، ولا تبرعات مالية، لا لفقد أهليتهما، أو نقصها، ولكن محافظة على مالهما.

❋وكذلك المدين بالغ عاقل له أهلية أداء كاملة، ولكن محافظة على دائنيه حجر عليه أن يتصرف في ماله بما يضر بحقوق الدائنين كالتبرعات.

❋فأهلية الأداء أساسها التمييز بالعقل، وأمارة العقل البلوغ، فمن بلغ عاقلا فأهليته للأداء كاملة.

❋وإذا طرأ عليه طارئ ذهب بعقله كالجنون، أو أضعفه كالعته، أو حال دون فهمه كالنوم والإغماء، فهذا الطارئ عارض له تأثير في أهلية الأداء بإزالتها أو بنقصها.

❋وإذا طرأ على الإنسان طارئ لم يذهب بعقله ولم يضعفه ولم يحل دون فهمه، فهذا الطارئ لا تأثير له في أهلية الأداء لا بإزالة ولا بنقص، وإن كان يقضي بتغير بعض الأحكام لمصالح اقتضت هذا التغير، كالسفه والغفلة والدين. ولهذا لا يرى الإمام أبو حنيفة الحجر بواحد من هذه

الثلاثة، لأنه لا تأثير لواحد منها في أهلية الإنسان، ويرى أن المصالح التي تترتب على الحجر بها لا توازن بالضرر الذي يلحق الإنسان من الحجر عليه واعتباره غير أهل للتكاليف .

الأسئلة الثلاثة الملحة

الأول : من الذي أوجدني بعد أن لم اكن شيئا مذكور ؟

الثاني : ما هي الغاية التي وجدنا من أجلها مزودين بعقل وإرادة وغرائز وأهواء وشهوات وحياة فيها خير وشر ؟

الثالث : إلى أين المصير بعد الموت ؟ وما هي نتائج العبور ؟

فبين لنا الله انه خلقنا من العدم وبين الأدلة من الكون والنفس وعرفنا انه أزلي له صفات الكمال ومنزه عن النقص .

﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا (١) ﴾ [الإنسان] ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩) ﴾ [مريم] ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩) ﴾ [البقرة]

وبين لنا أنه خلقنا للابتلاء والاختبار

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦)﴾ [الذاريات] ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) ﴾ [العنكبوت] ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢) ﴾ [الملك]

ومن ثم بعد الاختبار الجزاء والثواب في الدار الآخرة

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧)﴾ [النحل] ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١٥) ﴾ [الجاثية]

المحتويات

حقيقة الشرك
ابن القيم

عُقُوبَاتِ الذُّنُوبِ

الْخَتْمُ عَلَى الْقَلْبِ	التَّثْبِيطُ عَنِ الطَّاعَةِ
جَعْلُ الْقَلْبِ أَصَمَّ ، أَبْكَمَ ، أَعْمَى	خَسْفُ الْقَلْبِ
الْبُعْدُ عَنِ الْبِرِّ وَالْخَيْرِ	مَسْخُ الْقَلْبِ
نَكْسُ الْقَلْبِ	حَجْبُ الْقَلْبِ
الْمَعِيشَةُ الضَّنْكُ	
فَمِنْ أَعْظَمِ عُقُوبَاتِ الذُّنُوبِ – الْخُرُوجُ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ	

وَالْقَلْبُ السَّلِيمُ

هُوَ الَّذِي سَلِمَ مِنَ الشِّرْكِ وَالْغِلِّ وَالْحِقْدِ وَالْحَسَدِ وَالشُّحِّ وَالْكِبْرِ وَحُبِّ الدُّنْيَا وَالرِّيَاسَةِ

سَلَامَةُ الْقَلْبِ

وَلَا تَتِمُّ لَهُ سَلَامَتُهُ مُطْلَقًا حَتَّى يَسْلَمَ مِنْ خَمْسَةِ أَشْيَاءَ: مِنْ شِرْكٍ يُنَاقِضُ التَّوْحِيدَ، وَبِدْعَةٍ تُخَالِفُ السُّنَّةَ، وَشَهْوَةٍ تُخَالِفُ الْأَمْرَ، وَغَفْلَةٍ تُنَاقِضُ الذِّكْرَ، وَهَوًى يُنَاقِضُ التَّجْرِيدَ وَالْإِخْلَاصَ.

[بَعْضُ عُقُوبَاتِ المْعَاصِي]

فَاسْتَحْضِرْ بَعْضَ الْعُقُوبَاتِ الَّتِي رَتَّبَهَا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى الذُّنُوبِ وَجَوِّزْ وُصُولَ بَعْضِهَا إِلَيْكَ وَاجْعَلْ ذَلِكَ دَاعِيًا لِلنَّفْسِ إِلَى هِجْرَانِهَا، وَأَنَا أَسُوقُ إِلَيْكَ مِنْهَا طَرَفًا يَكْفِي الْعَاقِلَ مَعَ التَّصْدِيقِ بِبَعْضِهِ.

الْخَتْمُ عَلَى الْقَلْبِ

فَمِنْهَا: الْخَتْمُ عَلَى الْقُلُوبِ وَالْأَسْمَاعِ، وَالْغِشَاوَةُ عَلَى الْأَبْصَارِ، وَالْأَقْفَالُ عَلَى الْقُلُوبِ، وَجَعْلُ الْأَكِنَّةِ عَلَيْهَا وَالرَّيْنُ عَلَيْهَا وَالطَّبْعُ وَتَقْلِيبُ الْأَفْئِدَةِ وَالْأَبْصَارِ، وَالْحَيْلُولَةُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ، وَإِغْفَالُ الْقَلْبِ عَنْ ذِكْرِ الرَّبِّ، وَإِنْسَاءُ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ، وَتَرْكُ إِرَادَةِ اللهِ تَطْهِيرَ الْقَلْبِ، وَجَعْلُ الصَّدْرِ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ، وَصَرْفُ الْقُلُوبِ عَنِ الْحَقِّ، وَزِيَادَتُهَا مَرَضًا عَلَى مَرَضِهَا، وَإِرْكَاسُهَا وَإِنْكَاسُهَا بِحَيْثُ تَبْقَى مَنْكُوسَةً، كَمَا ذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - أَنَّهُ قَالَ: *الْقُلُوبُ أَرْبَعَةٌ: فَقَلْبٌ أَجْرَدُ فِيهِ سِرَاجٌ يُزْهِرُ: فَذَلِكَ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ، وَقَلْبٌ أَغْلَفُ: فَذَلِكَ قَلْبُ الْكَافِرِ، وَقَلْبٌ مَنْكُوسٌ: فَذَلِكَ قَلْبُ الْمُنَافِقِ، وَقَلْبٌ تَمُدُّهُ مَادَّتَانِ: مَادَّةُ إِيمَانٍ وَمَادَّةُ نِفَاقٍ، وَهُوَ لِمَا غَلَبَ عَلَيْهِ مِنْهُمَا*.

وَمِنْهَا: التَّثْبِيطُ عَنِ الطَّاعَةِ، وَالْإِقْعَادُ عَنْهَا.

وَمِنْهَا: جَعْلُ الْقَلْبِ أَصَمَّ لَا يَسْمَعُ الْحَقَّ، أَبْكَمَ لَا يَنْطِقُ بِهِ، أَعْمَى لَا يَرَاهُ، فَتَصِيرُ النِّسْبَةُ بَيْنَ الْقَلْبِ وَبَيْنَ الْحَقِّ الَّذِي لَا يَنْفَعُهُ غَيْرُهُ، كَالنِّسْبَةِ بَيْنَ أُذُنِ الْأَصَمِّ وَالْأَصْوَاتِ، وَعَيْنِ الْأَعْمَى وَالْأَلْوَانِ، وَلِسَانِ الْأَخْرَسِ وَالْكَلَامِ، وَبِهَذَا يُعْلَمُ أَنَّ الْعَمَى وَالصَّمَمَ وَالْبَكَمَ لِلْقَلْبِ بِالذَّاتِ: الْحَقِيقَةُ، وَلِلْجَوَارِحِ بِالْعَرَضِ وَالتَّبَعِيَّةِ {فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} [سُورَةُ الْحَجِّ: ٤٦].

وَلَيْسَ الْمُرَادُ نَفْيَ الْعَمَى الْحِسِّيِّ عَنِ الْبَصَرِ، كَيْفَ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: {لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ} [سُورَةُ النُّورِ: ٦١]. وَقَالَ: {عَبَسَ وَتَوَلَّى - أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى} [سُورَةُ عَبَسَ: ١ - ٢].

وَإِنَّمَا الْمُرَادُ الْعَمَى التَّامُّ فِي الْحَقِيقَةِ: عَمَى الْقَلْبِ، حَتَّى إِنَّ عَمَى الْبَصَرِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ كَلَا عَمًى،

حَتَّى إِنَّهُ يَصِحُّ نَفْيُهُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى كَمَالِهِ وَقُوَّتِهِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ - ﷺ -: «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ، وَلَكِنَّهُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ» وَقَوْلِهِ - ﷺ -: «لَيْسَ الْمِسْكِينُ بِالطَّوَّافِ الَّذِي تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ، وَلَكِنَّ الْمِسْكِينَ الَّذِي لَا يَسْأَلُ النَّاسَ، وَلَا يُفْطَنُ لَهُ فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ» وَنَظَائِرُهُ كَثِيرَةٌ.

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ مِنْ عُقُوبَاتِ الْمَعَاصِي جَعْلَ الْقَلْبِ أَعْمَى أَصَمَّ أَبْكَمَ.

خَسْفُ الْقَلْبِ

وَمِنْهَا: الْخَسْفُ بِالْقَلْبِ كَمَا يُخْسَفُ بِالْمَكَانِ وَمَا فِيهِ، فَيُخْسَفُ بِهِ إِلَى أَسْفَلِ السَّافِلِينَ وَصَاحِبُهُ لَا يَشْعُرُ، وَعَلَامَةُ الْخَسْفِ بِهِ أَنَّهُ لَا يَزَالُ جَوَّالًا حَوْلَ السُّفْلِيَّاتِ وَالْقَاذُورَاتِ وَالرَّذَائِلِ، كَمَا أَنَّ الْقَلْبَ الَّذِي رَفَعَهُ اللَّهُ وَقَرَّبَهُ إِلَيْهِ لَا يَزَالُ جَوَّالًا حَوْلَ الْعَرْشِ.

وَمِنْهَا: الْبُعْدُ عَنِ الْبِرِّ وَالْخَيْرِ وَمَعَالِي الْأُمُورِ وَالْأَعْمَالِ وَالْأَقْوَالِ وَالْأَخْلَاقِ.

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ جَوَّالَةٌ، فَمِنْهَا مَا يَجُولُ حَوْلَ الْعَرْشِ، وَمِنْهَا مَا يَجُولُ حَوْلَ الْحُشِّ.

مَسْخُ الْقَلْبِ

وَمِنْهَا: مَسْخُ الْقَلْبِ، فَيُمْسَخُ كَمَا تُمْسَخُ الصُّورَةُ، فَيَصِيرُ الْقَلْبُ عَلَى قَلْبِ الْحَيَوَانِ الَّذِي شَابَهَهُ فِي أَخْلَاقِهِ وَأَعْمَالِهِ وَطَبِيعَتِهِ، فَمِنَ الْقُلُوبِ مَا يُمْسَخُ عَلَى قَلْبِ خِنْزِيرٍ لِشِدَّةِ شَبَهِ صَاحِبِهِ بِهِ، وَمِنْهَا مَا يُمْسَخُ عَلَى قَلْبِ كَلْبٍ أَوْ حِمَارٍ أَوْ حَيَّةٍ أَوْ عَقْرَبٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَهَذَا تَأْوِيلُ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ} [سُورَةُ الْأَنْعَامِ] قَالَ: مِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ عَلَى أَخْلَاقِ السِّبَاعِ الْعَادِيَةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ عَلَى أَخْلَاقِ الْكِلَابِ وَأَخْلَاقِ الْخَنَازِيرِ وَأَخْلَاقِ الْحَمِيرِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَطَوَّسُ فِي ثِيَابِهِ كَمَا يَتَطَوَّسُ الطَّاوُوسُ فِي رِيشِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ بَلِيدًا كَالْحِمَارِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْثِرُ عَلَى نَفْسِهِ كَالدِّيكِ، وَمِنْهُمْ مِنْ يَأْلَفُ وَيُؤْلَفُ كَالْحَمَامِ، وَمِنْهُمُ الْحَقُودُ كَالْجَمَلِ، وَمِنْهُمُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ كُلُّهُ كَالْغَنَمِ، وَمِنْهُمْ أَشْبَاهُ الثَّعَالِبِ الَّتِي تَرُوغُ كَرَوَغَانِهَا، وَقَدْ شَبَّهَ اللَّهُ تَعَالَى أَهْلَ الْجَحِيمِ وَالْغَيِّ بِالْحُمُرِ تَارَةً، وَبِالْكَلْبِ تَارَةً، وَبِالْأَنْعَامِ تَارَةً،

وَتَقْوَى هَذِهِ الْمُشَابَهَةُ بَاطِنًا حَتَّى تَظْهَرَ فِي الصُّورَةِ الظَّاهِرَةِ ظُهُورًا خَفِيًّا، يَرَاهُ الْمُتَفَرِّسُونَ، وَتَظْهَرُ فِي الْأَعْمَالِ ظُهُورًا يَرَاهُ كُلُّ أَحَدٍ، وَلَا يَزَالُ يَقْوَى حَتَّى تُسْتَشْنَعَ الصُّورَةُ، فَتَنْقَلِبُ لَهُ الصُّورَةُ بِإِذْنِ اللهِ، وَهُوَ الْمَسْخُ التَّامُّ، فَيَقْلِبُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الصُّورَةَ الظَّاهِرَةَ عَلَى صُورَةِ ذَلِكَ الْحَيَوَانِ، كَمَا فَعَلَ بِالْيَهُودِ وَأَشْبَاهِهِمْ، وَيَفْعَلُ بِقَوْمٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَمْسَخُهُمْ قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ.

فَسُبْحَانَ اللهِ! كَمْ مِنْ قَلْبٍ مَنْكُوسٍ وَصَاحِبُهُ لَا يَشْعُرُ؟ وَقَلْبٍ مَمْسُوخٍ وَقَلْبٍ مَخْسُوفٍ بِهِ؟ وَكَمْ مِنْ مَفْتُونٍ بِثَنَاءِ النَّاسِ عَلَيْهِ وَمَغْرُورٍ بِسِتْرِ اللهِ عَلَيْهِ؟ وَمُسْتَدْرَجٍ بِنِعَمِ اللهِ عَلَيْهِ؟ وَكُلُّ هَذِهِ عُقُوبَاتٌ وَإِهَانَاتٌ وَيَظُنُّ الْجَاهِلُ أَنَّهَا كَرَامَةٌ.

وَمِنْهَا: مَكْرُ اللهِ بِالْمَاكِرِ، وَمُخَادَعَتُهُ لِلْمُخَادِعِ، وَاسْتِهْزَاؤُهُ بِالْمُسْتَهْزِئِ، وَإِزَاغَتُهُ لِلْقَلْبِ الزَّائِغِ عَنِ الْحَقِّ.

نَكْسُ الْقَلْبِ

وَمِنْهَا: نَكْسُ الْقَلْبِ حَتَّى يَرَى الْبَاطِلَ حَقًّا وَالْحَقَّ بَاطِلًا، وَالْمَعْرُوفَ مُنْكَرًا وَالْمُنْكَرَ مَعْرُوفًا، وَيُفْسِدُ وَيَرَى أَنَّهُ يُصْلِحُ، وَيَصُدُّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ يَدْعُو إِلَيْهَا، وَيَشْتَرِي الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى، وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ عَلَى الْهُدَى، وَيَتَّبِعُ هَوَاهُ وَهُوَ يَزْعُمُ أَنَّهُ مُطِيعٌ لِمَوْلَاهُ؟ وَكُلُّ هَذَا مِنْ عُقُوبَاتِ الذُّنُوبِ الْجَارِيَةِ عَلَى الْقَلْبِ.

حَجْبُ الْقَلْبِ عَنِ الرَّبِّ

وَمِنْهَا: حِجَابُ الْقَلْبِ عَنِ الرَّبِّ فِي الدُّنْيَا، وَالْحِجَابُ الْأَكْبَرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ} [سُورَةُ الْمُطَفِّفِينَ] فَمَنَعَتْهُمُ الذُّنُوبُ أَنْ يَقْطَعُوا الْمَسَافَةَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ قُلُوبِهِمْ، فَيَصِلُوا إِلَيْهَا فَيَرَوْا مَا يُصْلِحُهَا وَيُزَكِّيهَا، وَمَا يُفْسِدُهَا وَيُشْقِيهَا، وَأَنْ يَقْطَعُوا الْمَسَافَةَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَبَيْنَ رَبِّهِمْ، فَتَصِلَ الْقُلُوبُ إِلَيْهِ فَتَفُوزَ بِقُرْبِهِ وَكَرَامَتِهِ، وَتَقَرَّ بِهِ عَيْنًا وَتَطِيبَ بِهِ نَفْسًا، بَلْ كَانَتِ الذُّنُوبُ حِجَابًا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَبِّهِمْ وَخَالِقِهِمْ.

وَمِنْهَا: الْمَعِيشَةُ الضَّنْكُ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْبَرْزَخِ، وَالْعَذَابُ فِي الْآخِرَةِ، قَالَ تَعَالَى: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ

ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} [سُورَةُ طه: ١٢٤] .

وَفُسِّرَتِ الْمَعِيشَةُ الضَّنْكُ بِعَذَابِ الْقَبْرِ، وَلَا رَيْبَ أَنَّهُ مِنَ الْمَعِيشَةِ الضَّنْكِ، وَالْآيَةُ تَتَنَاوَلُ مَا هُوَ أَعَمُّ مِنْهُ، وَإِنْ كَانَتْ نَكِرَةً فِي سِيَاقِ الْإِثْبَاتِ، فَإِنَّ عُمُومَهَا مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ رَتَّبَ الْمَعِيشَةَ الضَّنْكَ عَلَى الْإِعْرَاضِ عَنْ ذِكْرِهِ، فَالْمُعْرِضُ عَنْهُ لَهُ مِنْ ضَنْكِ الْمَعِيشَةِ بِحَسَبِ إِعْرَاضِهِ، وَإِنْ تَنَعَّمَ فِي الدُّنْيَا بِأَصْنَافِ النِّعَمِ، فَفِي قَلْبِهِ مِنَ الْوَحْشَةِ وَالذُّلِّ وَالْحَسَرَاتِ الَّتِي تَقْطَعُ الْقُلُوبَ، وَالْأَمَانِي الْبَاطِلَةِ وَالْعَذَابِ الْحَاضِرِ مَا فِيهِ، وَإِنَّمَا يُوَارِيهِ عَنْهُ سَكَرَاتُ الشَّهَوَاتِ وَالْعِشْقِ وَحُبِّ الدُّنْيَا وَالرِّيَاسَةِ، وَإِنْ لَمْ يَنْضَمَّ إِلَى ذَلِكَ سُكْرُ الْخَمْرِ، فَسُكْرُ هَذِهِ الْأُمُورِ أَعْظَمُ مِنْ سُكْرِ الْخَمْرِ، فَإِنَّهُ يَفِيقُ صَاحِبُهُ وَيَصْحُو، وَسُكْرُ الْهَوَى وَحُبِّ الدُّنْيَا لَا يَصْحُو صَاحِبُهُ إِلَّا إِذَا كَانَ صَاحِبُهُ فِي عَسْكَرِ الْأَمْوَاتِ، فَالْمَعِيشَةُ الضَّنْكُ لَازِمَةٌ لِمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِ اللهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي دُنْيَاهُ وَفِي الْبَرْزَخِ وَيَوْمَ مَعَادِهِ، وَلَا تَقَرُّ الْعَيْنُ، وَلَا يَهْدَأُ الْقَلْبُ، وَلَا تَطْمَئِنُّ النَّفْسُ إِلَّا بِإِلَهِهَا وَمَعْبُودِهَا الَّذِي هُوَ حَقٌّ، وَكُلُّ مَعْبُودٍ سِوَاهُ بَاطِلٌ، فَمَنْ قَرَّتْ عَيْنُهُ بِاللهِ قَرَّتْ بِهِ كُلُّ عَيْنٍ، وَمَنْ لَمْ تَقَرَّ عَيْنُهُ بِاللهِ تَقَطَّعَتْ نَفْسُهُ عَلَى الدُّنْيَا حَسَرَاتٍ، وَاللهُ تَعَالَى إِنَّمَا جَعَلَ الْحَيَاةَ الطَّيِّبَةَ لِمَنْ آمَنَ بِهِ وَعَمِلَ صَالِحًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [سُورَةُ النَّحْلِ: ٩٧] .

فَضَمِنَ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ الْجَزَاءَ فِي الدُّنْيَا بِالْحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ، وَالْحُسْنَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلَهُمْ أَطْيَبُ الْحَيَاتَيْنِ، فَهُمْ أَحْيَاءٌ فِي الدَّارَيْنِ.

وَنَظِيرُ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ} [سُورَةُ النَّحْلِ: ٣٠] .

وَنَظِيرُهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ} [سُورَةُ هُودٍ: ٣] .

فَفَازَ الْمُتَّقُونَ الْمُحْسِنُونَ بِنَعِيمِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَحَصَلُوا عَلَى الْحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ فِي الدَّارَيْنِ، فَإِنَّ طِيبَ النَّفْسِ، وَسُرُورَ الْقَلْبِ، وَفَرَحَهُ وَلَذَّتَهُ وَابْتِهَاجَهُ وَطُمَأْنِينَتَهُ وَانْشِرَاحَهُ وَنُورَهُ وَسَعَتَهُ وَعَافِيَتَهُ مِنْ

تَرْكِ الشَّهَوَاتِ الْمُحَرَّمَةِ، وَالشُّبُهَاتِ الْبَاطِلَةِ - هُوَ النَّعِيمُ عَلَى الْحَقِيقَةِ، وَلَا نِسْبَةَ لِنَعِيمِ الْبَدَنِ إِلَيْهِ.

فَقَدْ كَانَ يَقُولُ بَعْضُ مَنْ ذَاقَ هَذِهِ اللَّذَّةَ: *لَوْ عَلِمَ الْمُلُوكُ وَأَبْنَاءُ الْمُلُوكِ مَا نَحْنُ فِيهِ لَجَالَدُونَا عَلَيْهِ بِالسُّيُوفِ.*

وَقَالَ آخَرُ: إِنَّهُ لَيَمُرُّ بِالْقَلْبِ أَوْقَاتٌ أَقُولُ فِيهَا: *إِنْ كَانَ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي مِثْلِ هَذَا، إِنَّهُمْ لَفِي عَيْشٍ طَيِّبٍ.*

وَقَالَ آخَرُ: إِنَّ فِي الدُّنْيَا جَنَّةً هِيَ فِي الدُّنْيَا كَالْجَنَّةِ فِي الْآخِرَةِ، فَمَنْ دَخَلَهَا دَخَلَ تِلْكَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَمْ يَدْخُلْهَا لَمْ يَدْخُلْ جَنَّةَ الْآخِرَةِ، وَقَدْ أَشَارَ النَّبِيُّ - ﷺ - إِلَى هَذِهِ الْجَنَّةِ بِقَوْلِهِ: «*إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ الْجَنَّةِ فَارْتَعُوا، قَالُوا: وَمَا رِيَاضُ الْجَنَّةِ؟ قَالَ: حِلَقُ الذِّكْرِ*» وَقَالَ: «*مَا بَيْنَ بَيْتِي وَمِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ*» .

نَعِيمُ الْأَبْرَارِ وَجَحِيمُ الْفُجَّارِ وَلَا تَظُنَّ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ - وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ} [سُورَةُ الانْفِطَارِ] مُخْتَصٌّ بِيَوْمِ الْمَعَادِ فَقَطْ، بَلْ هَؤُلَاءِ فِي نَعِيمٍ فِي دُورِهِمُ الثَّلَاثَةِ، وَهَؤُلَاءِ فِي جَحِيمٍ فِي دُورِهِمُ الثَّلَاثَةِ، وَأَيُّ لَذَّةٍ وَنَعِيمٍ فِي الدُّنْيَا أَطْيَبُ مِنْ بِرِّ الْقَلْبِ، وَسَلَامَةِ الصَّدْرِ، وَمَعْرِفَةِ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَمَحَبَّتِهِ، وَالْعَمَلِ عَلَى مُوَافَقَتِهِ؟ وَهَلِ الْعَيْشُ فِي الْحَقِيقَةِ إِلَّا عَيْشُ الْقَلْبِ السَّلِيمِ؟ وَقَدْ أَثْنَى اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى خَلِيلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِسَلَامَةِ قَلْبِهِ، فَقَالَ: {وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ - إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} [سُورَةُ الصَّافَّاتِ ٨٤] .

وَقَالَ حَاكِيًا عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: {يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ - إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} [سُورَةُ الشُّعَرَاءِ] .

وَالْقَلْبُ السَّلِيمُ

هُوَ الَّذِي سَلِمَ مِنَ الشِّرْكِ وَالْغِلِّ وَالْحِقْدِ وَالْحَسَدِ وَالشُّحِّ وَالْكِبْرِ وَحُبِّ الدُّنْيَا وَالرِّيَاسَةِ، فَسَلِمَ مِنْ كُلِّ آفَةٍ تُبْعِدُهُ عَنِ اللهِ، وَسَلِمَ مِنْ كُلِّ شُبْهَةٍ تُعَارِضُ خَبَرَهُ، وَمِنْ كُلِّ شَهْوَةٍ تُعَارِضُ أَمْرَهُ، وَسَلِمَ مِنْ كُلِّ إِرَادَةٍ تُزَاحِمُ مُرَادَهُ، وَسَلِمَ مِنْ كُلِّ قَاطِعٍ يَقْطَعُ عَنِ اللهِ، فَهَذَا الْقَلْبُ السَّلِيمُ فِي جَنَّةٍ مُعَجَّلَةٍ فِي الدُّنْيَا، وَفِي جَنَّةٍ فِي الْبَرْزَخِ، وَفِي جَنَّةٍ يَوْمَ الْمَعَادِ.

سَلَامَةُ الْقَلْبِ

وَلَا تَتِمُّ لَهُ سَلَامَتُهُ مُطْلَقًا حَتَّى يَسْلَمَ مِنْ خَمْسَةِ أَشْيَاءَ: مِنْ شِرْكٍ يُنَاقِضُ التَّوْحِيدَ، وَبِدْعَةٍ تُخَالِفُ السُّنَّةَ، وَشَهْوَةٍ تُخَالِفُ الْأَمْرَ، وَغَفْلَةٍ تُنَاقِضُ الذِّكْرَ، وَهَوًى يُنَاقِضُ التَّجْرِيدَ وَالْإِخْلَاصَ.

وَهَذِهِ الْخَمْسَةُ حُجُبٌ عَنِ اللهِ، وَتَحْتَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا أَنْوَاعٌ كَثِيرَةٌ، تَتَضَمَّنُ أَفْرَادًا لَا تَنْحَصِرُ.

الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ

وَلِذَلِكَ اشْتَدَّتْ حَاجَةُ الْعَبْدِ بَلْ ضَرُورَتُهُ، إِلَى أَنْ يَسْأَلَ اللهَ أَنْ يَهْدِيَهُ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحْوَجَ مِنْهُ إِلَى هَذِهِ الدَّعْوَةِ، وَلَيْسَ شَيْءٌ أَنْفَعَ لَهُ مِنْهَا.

فَإِنَّ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ يَتَضَمَّنُ: عُلُومًا، وَإِرَادَةً، وَأَعْمَالًا، وَتُرُوكًا ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً تَجْرِي عَلَيْهِ كُلَّ وَقْتٍ، فَتَفَاصِيلُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ قَدْ يَعْلَمُهَا الْعَبْدُ وَقَدْ لَا يَعْلَمُهَا، وَقَدْ يَكُونُ مَا لَا يَعْلَمُهُ أَكْثَرَ مِمَّا يَعْلَمُهُ، وَمَا يَعْلَمُهُ قَدْ يَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَقَدْ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ وَإِنْ عَجَزَ عَنْهُ، وَمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ قَدْ تُرِيدُهُ نَفْسُهُ وَقَدْ لَا تُرِيدُهُ كَسَلًا وَتَهَاوُنًا، أَوْ لِقِيَامِ مَانِعٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَمَا تُرِيدُهُ قَدْ يَفْعَلُهُ وَقَدْ لَا يَفْعَلُهُ، وَمَا يَفْعَلُهُ قَدْ يَقُومُ فِيهِ بِشُرُوطِ الْإِخْلَاصِ وَقَدْ لَا يَقُومُ، وَمَا يَقُومُ فِيهِ بِشُرُوطِ الْإِخْلَاصِ قَدْ يَقُومُ فِيهِ بِكَمَالِ الْمُتَابَعَةِ وَقَدْ لَا يَقُومُ، وَمَا يَقُومُ فِيهِ بِالْمُتَابَعَةِ قَدْ يَثْبُتُ عَلَيْهِ وَقَدْ يُصْرَفُ قَلْبُهُ عَنْهُ، وَهَذَا كُلُّهُ وَاقِعٌ سَارٍ فِي الْخَلْقِ، فَمُسْتَقِلٌّ وَمُسْتَكْثِرٌ.

وَلَيْسَ فِي طِبَاعِ الْعَبْدِ الْهِدَايَةُ إِلَى ذَلِكَ، بَلْ مَتَى وُكِلَ إِلَى طِبَاعِهِ حِيلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ذَلِكَ كُلِّهِ، وَهَذَا هُوَ الْإِرْكَاسُ الَّذِي أَرْكَسَ اللهُ بِهِ الْمُنَافِقِينَ بِذُنُوبِهِمْ، فَأَعَادَهُمْ إِلَى طِبَاعِهِمْ وَمَا خُلِقَتْ عَلَيْهِ نُفُوسُهُمْ مِنَ الْجَهْلِ وَالظُّلْمِ، وَالرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ فِي قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، وَنَهْيِهِ وَأَمْرِهِ، فَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَجَعْلِهِ الْهِدَايَةَ حَيْثُ تَصْلُحُ، وَيَصْرِفُ مَنْ يَشَاءُ عَنْ صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ بِعَدْلِهِ وَحِكْمَتِهِ، لِعَدَمِ صَلَاحِيَةِ الْمَحَلِّ، وَذَلِكَ مُوجِبُ صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ نَصَبَ لِخَلْقِهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا يُوصِلُهُمْ إِلَيْهِ، فَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

وَنَصَبَ لِعِبَادِهِ مِنْ أَمْرِهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا دَعَاهُمْ جَمِيعًا إِلَيْهِ حُجَّةً مِنْهُ وَعَدْلًا، وَهَدَى مَنْ يَشَاءُ

مِنْهُمْ إِلَى سُلُوكِهِ نِعْمَةً مِنْهُ وَفَضْلًا، وَلَمْ يَخْرُجْ بِهَذَا الْعَدْلِ وَهَذَا الْفَضْلِ عَنْ صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ لِقَائِهِ نَصَبَ لِخَلْقِهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا يُوَصِّلُهُمْ إِلَى جَنَّتِهِ، ثُمَّ صَرَفَ عَنْهُ مَنْ صَرَفَ عَنْهُ فِي الدُّنْيَا، وَأَقَامَ عَلَيْهِ مَنْ أَقَامَهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا، نُورًا ظَاهِرًا يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ فِي ظُلْمَةِ الْحَشْرِ، وَحَفِظَ عَلَيْهِمْ نُورَهُمْ حَتَّى قَطَعُوهُ كَمَا حَفِظَ عَلَيْهِمُ الْإِيمَانَ حَتَّى لَقَوْهُ، وَأَطْفَأَ نُورَ الْمُنَافِقِينَ أَحْوَجَ مَا كَانُوا إِلَيْهِ، كَمَا أَطْفَأَهُ مِنْ قُلُوبِهِمْ فِي الدُّنْيَا.

وَأَقَامَ أَعْمَالَ الْعُصَاةِ بِجَنْبَتَيِ الصِّرَاطِ كَلَالِيبَ وَحَسَكًا تَخْطَفُهُمْ كَمَا خَطَفَتْهُمْ فِي الدُّنْيَا عَنِ الِاسْتِقَامَةِ عَلَيْهِ، وَجَعَلَ قُوَّةَ سَيْرِهِمْ وَسُرْعَتَهُمْ عَلَى قَدْرِ قُوَّةِ سَيْرِهِمْ وَسُرْعَتِهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَنَصَبَ لِلْمُؤْمِنِينَ حَوْضًا يَشْرَبُونَ مِنْهُ بِإِزَاءِ شُرْبِهِمْ مِنْ شَرْعِهِ فِي الدُّنْيَا، وَحَرَمَ مِنَ الشُّرْبِ مِنْهُ هُنَاكَ مَنْ حُرِمَ الشُّرْبَ مِنْ شَرْعِهِ وَدِينِهِ هَاهُنَا.

فَانْظُرْ إِلَى الْآخِرَةِ كَأَنَّهَا رَأْيُ عَيْنٍ، وَتَأَمَّلْ حِكْمَةَ اللهِ سُبْحَانَهُ فِي الدَّارَيْنِ، تَعْلَمْ حِينَئِذٍ عِلْمًا يَقِينًا لَا شَكَّ فِيهِ: أَنَّ الدُّنْيَا مَزْرَعَةُ الْآخِرَةِ وَعُنْوَانُهَا وَأُنْمُوذَجُهَا، وَأَنَّ مَنَازِلَ النَّاسِ فِيهَا مِنَ السَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ عَلَى حَسَبِ مَنَازِلِهِمْ فِي هَذِهِ الدَّارِ فِي الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَضِدِّهِمَا، وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ.

فَمِنْ أَعْظَمِ عُقُوبَاتِ الذُّنُوبِ – الْخُرُوجُ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

أَصْلُ الذُّنُوبِ

أَصْلُهَا نَوْعَانِ: تَرْكُ مَأْمُورٍ، وَفِعْلُ مَحْظُورٍ
ثُمَّ هَذِهِ الذُّنُوبُ تَنْقَسِمُ إِلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ: مَلَكِيَّةٍ، وَشَيْطَانِيَّةٍ، وَسَبُعِيَّةٍ، وَبَهِيمِيَّةٍ
الذُّنُوبِ كَبَائِرَ وَصَغَائِرَ عَدَدُ الْكَبَائِرِ
الْأَعْمَالُ الْمُكَفِّرَةُ لَهَا ثَلَاثُ دَرَجَاتٍ
شِرْكُ الْوَسَاطَةِ

[أَصْلُ الذُّنُوبِ]

وَلَمَّا كَانَتِ الذُّنُوبُ مُتَفَاوِتَةً فِي دَرَجَاتِهَا وَمَفَاسِدِهَا تَفَاوَتَتْ عُقُوبَاتُهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِحَسَبِ تَفَاوُتِهَا.

وَنَحْنُ نَذْكُرُ فِيهَا بِعَوْنِ اللَّهِ وَحُسْنِ تَوْفِيقِهِ فَصْلًا وَجِيزًا جَامِعًا، فَنَقُولُ:

أَصْلُهَا نَوْعَانِ: تَرْكُ مَأْمُورٍ، وَفِعْلُ مَحْظُورٍ، وَهُمَا الذَّنْبَانِ اللَّذَانِ ابْتَلَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِهِمَا أَبَوَيِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ. وَكِلَاهُمَا يَنْقَسِمُ بِاعْتِبَارِ مَحَلِّهِ إِلَى ظَاهِرٍ عَلَى الْجَوَارِحِ، وَبَاطِنٍ فِي الْقُلُوبِ.

وَبِاعْتِبَارِ مُتَعَلَّقِهِ إِلَى حَقِّ اللَّهِ وَحَقِّ خَلْقِهِ.

وَإِنْ كَانَ كُلُّ حَقٍّ لِخَلْقِهِ فَهُوَ مُتَضَمِّنٌ لِحَقِّهِ، لَكِنْ سُمِّيَ حَقًّا لِلْخَلْقِ لِأَنَّهُ يَجِبُ بِمُطَالَبَتِهِمْ وَيَسْقُطُ بِإِسْقَاطِهِمْ.

ثُمَّ هَذِهِ الذُّنُوبُ تَنْقَسِمُ إِلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ: مَلَكِيَّةٍ، وَشَيْطَانِيَّةٍ، وَسَبُعِيَّةٍ، وَبَهِيمِيَّةٍ، وَلَا تَخْرُجُ عَنْ ذَلِكَ.

فَالذُّنُوبُ الْمَلَكِيَّةُ

أَنْ يَتَعَاطَى مَا لَا يَصِحُّ لَهُ مِنْ صِفَاتِ الرُّبُوبِيَّةِ، كَالْعَظَمَةِ، وَالْكِبْرِيَاءِ، وَالْجَبَرُوتِ، وَالْقَهْرِ، وَالْعُلُوِّ، وَاسْتِعْبَادِ الْخَلْقِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَيَدْخُلُ فِي هَذَا شِرْكٌ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَهُوَ نَوْعَانِ: شِرْكٌ بِهِ فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَجَعْلُ آلِهَةٍ أُخْرَى مَعَهُ، وَشِرْكٌ بِهِ فِي مُعَامَلَتِهِ، وَهَذَا الثَّانِي قَدْ لَا يُوجِبُ دُخُولَ النَّارِ، وَإِنْ أَحْبَطَ الْعَمَلَ الَّذِي أَشْرَكَ فِيهِ مَعَ اللَّهِ غَيْرَهُ.

وَهَذَا الْقِسْمُ أَعْظَمُ أَنْوَاعِ الذُّنُوبِ، وَيَدْخُلُ فِيهِ الْقَوْلُ عَلَى اللَّهِ بِلَا عِلْمٍ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الذُّنُوبِ، فَقَدْ نَازَعَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَمُلْكِهِ، وَجَعَلَ لَهُ نِدًّا، وَهَذَا أَعْظَمُ الذُّنُوبِ عِنْدَ اللَّهِ، وَلَا يَنْفَعُ مَعَهُ عَمَلٌ.

الذُّنُوبُ الشَّيْطَانِيَّةُ

وَأَمَّا الشَّيْطَانِيَّةُ: فَالتَّشَبُّهُ بِالشَّيْطَانِ فِي الْحَسَدِ، وَالْبَغْيِ وَالْغِشِّ وَالْغِلِّ وَالْخِدَاعِ وَالْمَكْرِ، وَالْأَمْرِ

بِمَعَاصِي اللهَّ وَتَحْسِينِهَا، وَالنَّهْيِ عَنْ طَاعَتِهِ وَتَهْجِينِهَا، وَالِابْتِدَاعِ فِي دِينِهِ، وَالدَّعْوَةِ إِلَى الْبِدَعِ وَالضَّلَالِ. وَهَذَا النَّوْعُ يَلِي النَّوْعَ الْأَوَّلَ فِي الْمَفْسَدَةِ، وَإِنْ كَانَتْ مَفْسَدَتُهُ دُونَهُ.

الذُّنُوبُ السَّبُعِيَّةُ

وَأَمَّا السَّبُعِيَّةُ: فَذُنُوبُ الْعُدْوَانِ وَالْغَضَبِ وَسَفْكِ الدِّمَاءِ، وَالتَّوَثُّبِ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَالْعَاجِزِينَ، وَيَتَوَلَّدُ مِنْهَا أَنْوَاعُ أَذَى النَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ وَالْجُرْأَةِ عَلَى الظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ.

الذُّنُوبُ الْبَهِيمِيَّةُ

وَأَمَّا الذُّنُوبُ الْبَهِيمِيَّةُ: فَمِثْلُ الشَّرَهِ وَالْحِرْصِ عَلَى قَضَاءِ شَهْوَةِ الْبَطْنِ وَالْفَرْجِ، وَمِنْهَا يَتَوَلَّدُ الزِّنَا وَالسَّرِقَةُ وَأَكْلُ أَمْوَالِ الْيَتَامَى، وَالْبُخْلُ، وَالشُّحُّ، وَالْجُبْنُ، وَالْهَلَعُ، وَغَيْرُ ذَلِكَ.

وَهَذَا الْقِسْمُ أَكْثَرُ ذُنُوبِ الْخَلْقِ لِعَجْزِهِمْ عَنِ الذُّنُوبِ السَّبُعِيَّةِ وَالْمَلَكِيَّةِ، وَمِنْهُ يَدْخُلُونَ إِلَى سَائِرِ الْأَقْسَامِ، فَهُوَ يَجُرُّهُمْ إِلَيْهَا بِالزِّمَامِ، فَيَدْخُلُونَ مِنْهُ إِلَى الذُّنُوبِ السَّبُعِيَّةِ، ثُمَّ إِلَى الشَّيْطَانِيَّةِ، ثُمَّ مُنَازَعَةِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَالشِّرْكِ فِي الْوَحْدَانِيَّةِ، وَمَنْ تَأَمَّلَ هَذَا حَقَّ التَّأَمُّلِ، تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ الذُّنُوبَ دِهْلِيزُ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ وَمُنَازَعَةِ اللهَّ رُبُوبِيَّتَهُ.

[فَصْلٌ الذُّنُوبُ كَبَائِرُ وَصَغَائِرُ]

وَقَدْ دَلَّ الْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ وَإِجْمَاعُ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ بَعْدَهُمْ وَالْأَئِمَّةِ، عَلَى أَنَّ مِنَ الذُّنُوبِ كَبَائِرَ وَصَغَائِرَ، قَالَ اللهُّ تَعَالَى: {إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا} [سُورَةُ النِّسَاءِ: ٣١] .

وَقَالَ تَعَالَى: {الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ} [سُورَةُ النَّجْمِ: ٣٢] .

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْهُ - ﷺ - أَنَّهُ قَالَ: «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ» .

وَهَذِهِ الْأَعْمَالُ الْمُكَفِّرَةُ لَهَا ثَلَاثُ دَرَجَاتٍ:

إِحْدَاهَا: أَنْ تَقْصُرَ عَنْ تَكْفِيرِ الصَّغَائِرِ لِضَعْفِهَا وَضَعْفِ الْإِخْلَاصِ فِيهَا وَالْقِيَامِ بِحُقُوقِهَا، بِمَنْزِلَةِ الدَّوَاءِ الضَّعِيفِ الَّذِي يَنْقُصُ عَنْ مُقَاوَمَةِ الدَّاءِ كَمِّيَّةً وَكَيْفِيَّةً.

الثَّانِيَةُ: أَنْ تُقَاوِمَ الصَّغَائِرَ وَلَا تَرْتَقِيَ إِلَى تَكْفِيرِ شَيْءٍ مِنَ الْكَبَائِرِ.

الثَّالِثَةُ: أَنْ تَقْوَى عَلَى تَكْفِيرِ الصَّغَائِرِ وَتَبْقَى فِيهَا قُوَّةٌ تُكَفِّرُ بِهَا بَعْضَ الْكَبَائِرِ.

فَتَأَمَّلْ هَذَا فَإِنَّهُ يُزِيلُ عَنْكَ إِشْكَالَاتٍ كَثِيرَةً.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ - ﷺ - أَنَّهُ قَالَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ، قِيلَ: وَمَا هُنَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ» .

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ - ﷺ - أَنَّهُ سُئِلَ: «أَيُّ الذَّنْبِ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ؟ قَالَ: أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ، قِيلَ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مَخَافَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ، قِيلَ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: أَنْ تَزْنِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ» فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى تَصْدِيقَهَا:

{وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ} [سُورَةُ الْفُرْقَانِ: ٦٨] .

عَدَدُ الْكَبَائِرِ

وَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِي الْكَبَائِرِ: هَلْ لَهَا عَدَدٌ يَحْصُرُهَا؟ عَلَى قَوْلَيْنِ.

ثُمَّ الَّذِينَ قَالُوا بِحَصْرِهَا اخْتَلَفُوا فِي عَدَدِهَا، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: هِيَ أَرْبَعٌ، وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ: هِيَ سَبْعٌ، وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ: هِيَ تِسْعَةٌ، وَقَالَ غَيْرُهُ: هِيَ إِحْدَى عَشْرَةَ، وَقَالَ آخَرُ: هِيَ سَبْعُونَ.

الكبائر عند ابي طالب المكي

وَقَالَ أَبُو طَالِبٍ الْمَكِّيُّ: جَمَعْتُهَا مِنْ أَقْوَالِ الصَّحَابَةِ، فَوَجَدْتُهَا: أَرْبَعَةً فِي الْقَلْبِ، وَهِيَ: الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالْإِصْرَارُ عَلَى الْمَعْصِيَةِ، وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ.

وَأَرْبَعَةٌ فِي اللِّسَانِ، وَهِيَ: شَهَادَةُ الزُّورِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ، وَالْيَمِينُ الْغَمُوسُ، وَالسِّحْرُ.

وَثَلَاثٌ فِي الْبَطْنِ: شُرْبُ الْخَمْرِ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَأَكْلُ الرِّبَا.

وَاثْنَتَانِ فِي الْفَرْجِ، وَهُمَا: الزِّنَا، وَاللِّوَاطُ.

وَاثْنَتَانِ فِي الْيَدَيْنِ، وَهُمَا: الْقَتْلُ، وَالسَّرِقَةُ.

وَوَاحِدَةٌ فِي الرِّجْلَيْنِ، وَهَى: الْفِرَارُ مِنَ الزَّحْفِ.

وَوَاحِدٌ يَتَعَلَّقُ بِجَمِيعِ الْجَسَدِ، وَهُوَ: عُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ.

وَالَّذِينَ لَمْ يَحْصُرُوهَا بِعَدَدٍ، مِنْهُمْ مَنْ قَالَ: كُلُّ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ فِي الْقُرْآنِ فَهُوَ كَبِيرَةٌ، وَمَا نَهَى عَنْهُ الرَّسُولُ - ﷺ - فَهُوَ صَغِيرَةٌ.

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: مَا اقْتَرَنَ بِالنَّهْيِ عَنْهُ وَعِيدٌ مِنْ لَعْنٍ أَوْ غَضَبٍ أَوْ عُقُوبَةٍ فَهُوَ كَبِيرَةٌ، وَمَا لَمْ يَقْتَرِنْ بِهِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فَهُوَ صَغِيرَةٌ.

وَقِيلَ: كُلُّ مَا تَرَتَّبَ عَلَيْهِ حَدٌّ فِي الدُّنْيَا أَوْ وَعِيدٌ فِي الْآخِرَةِ، فَهُوَ كَبِيرَةٌ، وَمَا لَمْ يُرَتَّبْ عَلَيْهِ لَا هَذَا وَلَا هَذَا، فَهُوَ صَغِيرَةٌ.

وَقِيلَ: كُلُّ مَا اتَّفَقَتِ الشَّرَائِعُ عَلَى تَحْرِيمِهِ فَهُوَ مِنَ الْكَبَائِرِ، وَمَا كَانَ تَحْرِيمُهُ فِي شَرِيعَةٍ دُونَ شَرِيعَةٍ فَهُوَ صَغِيرَةٌ.

وَقِيلَ: كُلُّ مَا لَعَنَ اللهُ أَوْ رَسُولُهُ فَاعِلَهُ فَهُوَ كَبِيرَةٌ.

وَقِيلَ: كُلُّ مَا ذُكِرَ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ النِّسَاءِ إِلَى قَوْلِهِ: {إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ} [سُورَةُ النِّسَاءِ: ٣١] .

وَالَّذِينَ لَمْ يُقَسِّمُوهَا إِلَى كَبَائِرَ وَصَغَائِرَ، قَالُوا: الذُّنُوبُ كُلُّهَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْجَرَاءَةِ عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَمَعْصِيَتِهِ وَمُخَالَفَةِ أَمْرِهِ، كَبَائِرُ، فَالنَّظَرُ إِلَى مَنْ عَصَى أَمْرَهُ وَانْتَهَكَ مَحَارِمَهُ، يُوجِبُ أَنْ تَكُونَ الذُّنُوبُ كُلُّهَا كَبَائِرَ، وَهِيَ مُسْتَوِيَةٌ فِي هَذِهِ الْمَفْسَدَةِ.

قَالُوا: وَيُوَضِّحُ هَذَا أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَا تَضُرُّهُ الذُّنُوبُ وَلَا يَتَأَثَّرُ بِهَا، فَلَا يَكُونُ بَعْضُهَا بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ أَكْبَرَ مِنْ بَعْضٍ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا مُجَرَّدُ مَعْصِيَتِهِ وَمُخَالَفَتِهِ، وَلَا فَرْقَ فِي ذَلِكَ بَيْنَ ذَنْبٍ وَذَنْبٍ.

قَالُوا: وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَنَّ مَفْسَدَةَ الذُّنُوبِ إِنَّمَا هِيَ تَابِعَةٌ لِلْجَرَاءَةِ وَالتَّوَثُّبِ عَلَى حَقِّ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَلِهَذَا لَوْ شَرِبَ رَجُلٌ خَمْرًا، أَوْ وَطِئَ فَرْجًا حَرَامًا، وَهُوَ لَا يَعْتَقِدُ تَحْرِيمَهُ، لَكَانَ قَدْ جَمَعَ بَيْنَ الْجَهْلِ وَبَيْنَ مَفْسَدَةِ ارْتِكَابِ الْحَرَامِ، وَلَوْ فَعَلَ ذَلِكَ مَنْ يَعْتَقِدُ تَحْرِيمَهُ، لَكَانَ آتِيًا بِإِحْدَى

الْمَفْسَدَتَيْنِ، وَهُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ الْعُقُوبَةَ دُونَ الْأَوَّلِ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ مَفْسَدَةَ الذَّنْبِ تَابِعَةٌ لِلْجَرَاءَةِ وَالتَّوَثُّبِ.

قَالُوا: وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا أَنَّ الْمَعْصِيَةَ تَتَضَمَّنُ الِاسْتِهَانَةَ بِأَمْرِ الْمُطَاعِ وَنَهْيِهِ وَانْتِهَاكِ حُرْمَتِهِ، وَهَذَا لَا فَرْقَ فِيهِ بَيْنَ ذَنْبٍ وَذَنْبٍ.

قَالُوا: فَلَا يَنْظُرُ الْعَبْدُ إِلَى كِبَرِ الذَّنْبِ وَصِغَرِهِ فِي نَفْسِهِ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قَدْرِ مَنْ عَصَاهُ وَعَظَمَتِهِ، وَانْتِهَاكِ حُرْمَتِهِ بِالْمَعْصِيَةِ، وَهَذَا لَا يَفْتَرِقُ فِيهِ الْحَالُ بَيْنَ مَعْصِيَةٍ وَمَعْصِيَةٍ، فَإِنَّ مَلِكًا مُطَاعًا عَظِيمًا لَوْ أَمَرَ أَحَدَ مَمْلُوكَيْهِ أَنْ يَذْهَبَ فِي مُهِمٍّ لَهُ إِلَى بَلَدٍ بَعِيدٍ، وَأَمَرَ آخَرَ أَنْ يَذْهَبَ فِي شُغْلٍ لَهُ إِلَى جَانِبِ الدَّارِ، فَعَصَيَاهُ وَخَالَفَا أَمْرَهُ، لَكَانَا فِي مَقْتِهِ وَالسُّقُوطِ مِنْ عَيْنِهِ سَوَاءً.

قَالُوا: وَلِهَذَا كَانَتْ مَعْصِيَةُ مَنْ تَرَكَ الْحَجَّ مِنْ مَكَّةَ وَتَرَكَ الْجُمُعَةَ وَهُوَ جَارُ الْمَسْجِدِ، أَقْبَحَ عِنْدَ اللهِ مِنْ مَعْصِيَةِ مَنْ تَرَكَ مِنَ الْمَكَانِ الْبَعِيدِ، وَالْوَاجِبُ عَلَى هَذَا أَكْثَرُ مِنَ الْوَاجِبِ عَلَى هَذَا، وَلَوْ كَانَ مَعَ رَجُلٍ مِائَتَا دِرْهَمٍ وَمَنَعَ زَكَاتَهَا، وَمَعَ آخَرَ مِائَتَا أَلْفِ دِرْهَمٍ فَمَنَعَ مِنْ زَكَاتِهَا؛ لَاسْتَوَيَا فِي مَنْعِ مَا وَجَبَ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا، وَلَا يَبْعُدُ اسْتِوَاؤُهُمَا فِي الْعُقُوبَةِ، إِذَا كَانَ كُلٌّ مِنْهُمَا مُصِرًّا عَلَى مَنْعِ زَكَاةِ مَالِهِ، قَلِيلًا كَانَ الْمَالُ أَوْ كَثِيرًا.

فَصْلٌ وَكَشْفُ الْغِطَاءِ عَنْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ أَنْ يُقَالَ:

إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَرْسَلَ رُسُلَهُ، وَأَنْزَلَ كُتُبَهُ، وَخَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيُعْرَفَ وَيُعْبَدَ وَيُوَحَّدَ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ للهِ، وَالطَّاعَةُ كُلُّهَا لَهُ، وَالدَّعْوَةُ لَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [سُورَةُ الذَّارِيَاتِ: ٥٦].

وَقَالَ تَعَالَى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ} [سُورَةُ الْحِجْرِ: ٨٥].

وَقَالَ تَعَالَى: {اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا} [الطَّلَاقِ: ١٢].

وَقَالَ تَعَالَى: {جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [سُورَةُ الْمَائِدَةِ].

فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ الْقَصْدَ بِالْخَلْقِ وَالْأَمْرِ: أَنْ يُعْرَفَ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَيُعْبَدَ وَحْدَهُ لَا يُشْرَكَ بِهِ، وَأَنْ يَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ، وَهُوَ الْعَدْلُ الَّذِي قَامَتْ بِهِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ} [الْحَدِيدِ: ٢٥].

فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ أَرْسَلَ رُسُلَهُ وَأَنْزَلَ كُتُبَهُ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَهُوَ الْعَدْلُ، وَمِنْ أَعْظَمِ الْقِسْطِ التَّوْحِيدُ، وَهُوَ رَأْسُ الْعَدْلِ وَقِوَامُهُ، وَإِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ، فَالشِّرْكُ أَظْلَمُ الظُّلْمِ، وَالتَّوْحِيدُ أَعْدَلُ الْعَدْلِ، فَمَا كَانَ أَشَدَّ مُنَافَاةً لِهَذَا الْمَقْصُودِ فَهُوَ أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ، وَتَفَاوُتُهَا فِي دَرَجَاتِهَا بِحَسَبِ مُنَافَاتِهَا لَهُ، وَمَا كَانَ أَشَدَّ مُوَافَقَةً لِهَذَا الْمَقْصُودِ فَهُوَ أَوْجَبُ الْوَاجِبَاتِ وَأَفْرَضُ الطَّاعَاتِ.

فَتَأَمَّلْ هَذَا الْأَصْلَ حَقَّ التَّأَمُّلِ، وَاعْتَبِرْ تَفَاصِيلَهُ تَعْرِفْ بِهِ حِكْمَةَ أَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ، وَأَعْلَمِ الْعَالِمِينَ فِيمَا فَرَضَهُ عَلَى عِبَادِهِ، وَحَرَّمَهُ عَلَيْهِمْ، وَتَفَاوُتَ مَرَاتِبِ الطَّاعَاتِ وَالْمَعَاصِي.

فَلَمَّا كَانَ الشِّرْكُ بِاللَّهِ مُنَافِيًا بِالذَّاتِ لِهَذَا الْمَقْصُودِ كَانَ أَكْبَرَ الْكَبَائِرِ عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَحَرَّمَ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى كُلِّ مُشْرِكٍ، وَأَبَاحَ دَمَهُ وَمَالَهُ وَأَهْلَهُ لِأَهْلِ التَّوْحِيدِ، وَأَنْ يَتَّخِذُوهُمْ عَبِيدًا لَهُمْ لَمَّا تَرَكُوا الْقِيَامَ بِعُبُودِيَّتِهِ، وَأَبَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَقْبَلَ مِنْ مُشْرِكٍ عَمَلًا أَوْ يَقْبَلَ فِيهِ شَفَاعَةً أَوْ يَسْتَجِيبَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ دَعْوَةً، أَوْ يُقِيلَ لَهُ عَثْرَةً، فَإِنَّ الْمُشْرِكَ أَجْهَلُ الْجَاهِلِينَ بِاللَّهِ، حَيْثُ جَعَلَ لَهُ مِنْ خَلْقِهِ نِدًّا، وَذَلِكَ غَايَةُ الْجَهْلِ بِهِ، كَمَا أَنَّهُ غَايَةُ الظُّلْمِ مِنْهُ، وَإِنْ كَانَ الْمُشْرِكُ لَمْ يَظْلِمْ رَبَّهُ وَإِنَّمَا ظَلَمَ نَفْسَهُ.

[شِرْكُ الْوَسَاطَةِ]

وَوَقَعَتْ مَسْأَلَةٌ وَهِيَ: أَنَّ الْمُشْرِكَ إِنَّمَا قَصْدُهُ تَعْظِيمُ جَنَابِ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَأَنَّهُ لِعَظَمَتِهِ لَا يَنْبَغِي الدُّخُولُ عَلَيْهِ إِلَّا بِالْوَسَائِطِ وَالشُّفَعَاءِ كَحَالِ الْمُلُوكِ، فَالْمُشْرِكُ لَمْ يَقْصِدْ الِاسْتِهَانَةَ بِجَنَابِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَإِنَّمَا قَصَدَ تَعْظِيمَهُ، وَقَالَ: إِنَّمَا أَعْبُدُ هَذِهِ الْوَسَائِطَ لِتُقَرِّبَنِي إِلَيْهِ وَتَدُلَّنِي وَتُدْخِلَنِي عَلَيْهِ، فَهُوَ الْمَقْصُودُ وَهَذِهِ وَسَائِلُ وَشُفَعَاءُ، فَلِمَ كَانَ هَذَا الْقَدْرُ مُوجِبًا لِسُخْطِهِ وَغَضَبِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَمُخَلِّدًا فِي النَّارِ، وَمُوجِبًا لِسَفْكِ دِمَاءِ أَصْحَابِهِ، وَاسْتِبَاحَةِ حَرِيمِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ؟

وَتَرَتَّبَ عَلَى هَذَا سُؤَالٌ آخَرُ، وَهُوَ أَنَّهُ هَلْ يَجُوزُ أَنْ يَشْرَعَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِعِبَادِهِ التَّقَرُّبَ إِلَيْهِ بِالشُّفَعَاءِ وَالْوَسَائِطِ، فَيَكُونَ تَحْرِيمُ هَذَا إِنَّمَا اسْتُفِيدَ مِنَ الشَّرْعِ، أَمْ ذَلِكَ قَبِيحٌ فِي الْفِطَرِ وَالْعُقُولِ، يَمْتَنِعُ أَنْ

تَأْتِيَ بِهِ شَرِيعَةٌ؟ بَلْ جَاءَتِ الشَّرَائِعُ بِتَقْرِيرِ مَا فِي الْفِطَرِ وَالْعُقُولِ مِنْ قُبْحِهِ الَّذِي هُوَ أَقْبَحُ مِنْ كُلِّ قَبِيحٍ؟ وَمَا السَّبَبُ فِي كَوْنِهِ لَا يَغْفِرُهُ مِنْ دُونِ سَائِرِ الذُّنُوبِ؟ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {إِنَّ اللهَّ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} [سُورَةُ النِّسَاءِ: ٤٨]

فَتَأَمَّلْ هَذَا السُّؤَالَ، وَاجْمَعْ قَلْبَكَ وَذِهْنَكَ عَلَى جَوَابِهِ وَلَا تَسْتَهْوِنْهُ، فَإِنَّ بِهِ يَحْصُلُ الْفَرْقُ بَيْنَ الْمُشْرِكِينَ وَالْمُوَحِّدِينَ، وَالْعَالِمِينَ بِاللهَّ وَالْجَاهِلِينَ بِهِ، وَأَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ.

الشِّرْكُ

شِرْكٌ يَتَعَلَّقُ بِذَاتِ الْمَعْبُودِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ
وَشِرْكٌ فِي عِبَادَتِهِ وَمُعَامَلَتِهِ
شِرْكُ التَّعْطِيلِ
شِرْكُ مَنْ جَعَلَ مَعَهُ إِلَهًا آخَرَ
الشِّرْكُ فِي الْعِبَادَةِ
وَهَذَا الشِّرْكُ يَنْقَسِمُ إِلَى مَغْفُورٍ وَغَيْرِ مَغْفُورٍ
الشِّرْكُ فِي الْأَفْعَالِ وَالْأَقْوَالِ وَالْإِرَادَاتِ وَالنِّيَّاتِ
الشِّرْكُ فِي اللَّفْظِ

أَنْوَاعَ الشِّرْكِ

فَنَقُولُ، وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ وَالتَّأْيِيدُ، وَمِنْهُ نَسْتَمِدُّ الْمَعُونَةَ وَالتَّسْدِيدَ، فَإِنَّهُ مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَلَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَى وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعَ.

الشِّرْكُ شِرْكَانِ: شِرْكٌ يَتَعَلَّقُ بِذَاتِ الْمَعْبُودِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ.

وَشِرْكٌ فِي عِبَادَتِهِ وَمُعَامَلَتِهِ، وَإِنْ كَانَ صَاحِبُهُ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي ذَاتِهِ، وَلَا فِي صِفَاتِهِ، وَلَا فِي أَفْعَالِهِ.

وَالشِّرْكُ الْأَوَّلُ نَوْعَانِ:

أَحَدُهُمَا: شِرْكُ التَّعْطِيلِ: وَهُوَ أَقْبَحُ أَنْوَاعِ الشِّرْكِ، كَشِرْكِ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَ: {وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ} [سُورَةُ الشُّعَرَاءِ: ٢٣].

وَقَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ لِهَامَانَ: {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاهَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ - أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا} [سُورَةُ غَافِرٍ: ٣٦ - ٣٧] فَالشِّرْكُ وَالتَّعْطِيلُ مُتَلَازِمَانِ: فَكُلُّ مُشْرِكٍ مُعَطِّلٌ وَكُلُّ مُعَطِّلٍ مُشْرِكٌ، لَكِنَّ الشِّرْكَ لَا يَسْتَلْزِمُ أَصْلَ التَّعْطِيلِ، بَلْ يَكُونُ الْمُشْرِكُ مُقِرًّا بِالْخَالِقِ سُبْحَانَهُ وَصِفَاتِهِ، وَلَكِنَّهُ مُعَطِّلٌ حَقَّ التَّوْحِيدِ.

التَّعْطِيلُ

وَأَصْلُ الشِّرْكِ وَقَاعِدَتُهُ الَّتِي يَرْجِعُ إِلَيْهَا، هُوَ التَّعْطِيلُ، وَهُوَ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ:

تَعْطِيلُ الْمَصْنُوعِ عَنْ صَانِعِهِ وَخَالِقِهِ.

وَتَعْطِيلُ الصَّانِعِ سُبْحَانَهُ عَنْ كَمَالِهِ الْمُقَدَّسِ، بِتَعْطِيلِ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ.

وَتَعْطِيلُ مُعَامَلَتِهِ عَمَّا يَجِبُ عَلَى الْعَبْدِ مِنْ حَقِيقَةِ التَّوْحِيدِ.

وَمِنْ هَذَا شِرْكُ طَائِفَةِ أَهْلِ وَحْدَةِ الْوُجُودِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: مَا ثَمَّ خَالِقٌ وَمَخْلُوقٌ وَلَا هَاهُنَا شَيْئَانِ، بَلِ الْحَقُّ الْمُنَزَّهُ هُوَ عَيْنُ الْخَلْقِ الْمُشَبَّهِ. وَمِنْهُ شِرْكُ الْمَلَاحِدَةِ الْقَائِلِينَ بِقِدَمِ الْعَالَمِ وَأَبَدِيَّتِهِ، وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مَعْدُومًا أَصْلًا، بَلْ لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ، وَالْحَوَادِثُ بِأَسْرِهَا مُسْتَنِدَةٌ عِنْدَهُمْ إِلَى أَسْبَابٍ وَوَسَائِطَ اقْتَضَتْ إِيجَادَهَا، وَيُسَمُّونَهَا بِالْعُقُولِ وَالنُّفُوسِ. وَمِنْ هَذَا شِرْكُ مَنْ عَطَّلَ أَسْمَاءَ الرَّبِّ تَعَالَى

وَأَوْصَافَهُ وَأَفْعَالَهُ مِنْ غُلَاةِ الْجَهْمِيَّةِ وَالْقَرَامِطَةِ، فَلَمْ يُثْبِتُوا لَهُ اسْمًا وَلَا صِفَةً، بَلْ جَعَلُوا الْمَخْلُوقَ أَكْمَلَ مِنْهُ، إِذْ كَمَالُ الذَّاتِ بِأَسْمَائِهَا وَصِفَاتِهَا.

النَّوْعُ الثَّانِي: شِرْكُ مَنْ جَعَلَ مَعَهُ إِلَهًا آخَرَ، وَلَمْ يُعَطِّلْ أَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ وَرُبُوبِيَّتَهُ، كَشِرْكِ النَّصَارَى الَّذِينَ جَعَلُوهُ ثَلَاثَةً، فَجَعَلُوا الْمَسِيحَ إِلَهًا، وَأُمَّهُ إِلَهًا.

وَمِنْ هَذَا شِرْكُ الْمَجُوسِ الْقَائِلِينَ بِإِسْنَادِ حَوَادِثِ الْخَيْرِ إِلَى النُّورِ، وَحَوَادِثِ الشَّرِّ إِلَى الظُّلْمَةِ.

وَمِنْ هَذَا شِرْكُ الْقَدَرِيَّةِ الْقَائِلِينَ بِأَنَّ الْحَيَوَانَ هُوَ الَّذِي يَخْلُقُ أَفْعَالَ نَفْسِهِ، وَأَنَّهَا تَحْدُثُ بِدُونِ مَشِيئَةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ وَإِرَادَتِهِ، وَلِهَذَا كَانُوا مِنْ أَشْبَاهِ الْمَجُوسِ.

وَمِنْ هَذَا شِّرْكُ - الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ {إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ} [سُورَةُ الْبَقَرَةِ: ٢٥٨].

فَهَذَا جَعَلَ نَفْسَهُ نِدًّا لِلَّهِ، يُحْيِي وَيُمِيتُ بِزَعْمِهِ، كَمَا يُحْيِي اللَّهُ وَيُمِيتُ، فَأَلْزَمَهُ إِبْرَاهِيمُ أَنَّ طَرْدَ قَوْلِكَ أَنْ تَقْدِرَ عَلَى الْإِتْيَانِ بِالشَّمْسِ مِنْ غَيْرِ الْجِهَةِ الَّتِي يَأْتِي بِهَا اللَّهُ مِنْهَا، وَلَيْسَ هَذَا انْتِقَالًا كَمَا زَعَمَ بَعْضُ أَهْلِ الْجَدَلِ بَلْ إِلْزَامًا عَلَى طَرْدِ الدَّلِيلِ إِنْ كَانَ حَقًّا.

وَمِنْ هَذَا شِرْكُ كَثِيرٍ مِمَّنْ يُشْرِكُ بِالْكَوَاكِبِ الْعُلْوِيَّاتِ، وَيَجْعَلُهَا أَرْبَابًا مُدَبِّرَةً لِأَمْرِ هَذَا الْعَالَمِ، كَمَا هُوَ مَذْهَبُ مُشْرِكِي الصَّابِئَةِ وَغَيْرِهِمْ.

وَمِنْ هَذَا شِرْكُ عُبَّادِ الشَّمْسِ وَعُبَّادِ النَّارِ وَغَيْرِهِمْ.

وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّ مَعْبُودَهُ هُوَ الْإِلَهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ أَكْبَرُ الْآلِهَةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ إِلَهٌ مِنْ جُمْلَةِ الْآلِهَةِ، وَأَنَّهُ إِذَا خَصَّهُ بِعِبَادَتِهِ وَالتَّبَتُّلِ إِلَيْهِ وَالِانْقِطَاعِ إِلَيْهِ أَقْبَلَ عَلَيْهِ وَاعْتَنَى بِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّ مَعْبُودَهُ الْأَدْنَى يُقَرِّبُهُ إِلَى الْمَعْبُودِ الَّذِي هُوَ فَوْقَهُ، وَالْفَوْقَانِيَّ يُقَرِّبُهُ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَهُ، حَتَّى تُقَرِّبَهُ تِلْكَ الْآلِهَةُ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَتَارَةً تَكْثُرُ الْوَسَائِطُ وَتَارَةً تَقِلُّ.

[الشِّرْكُ فِي الْعِبَادَةِ]

وَأَمَّا الشِّرْكُ فِي الْعِبَادَةِ فَهُوَ أَسْهَلُ مِنْ هَذَا الشِّرْكِ، وَأَخَفُّ أَمْرًا، فَإِنَّهُ يَصْدُرُ مِمَّنْ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّهُ لَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ وَلَا يُعْطِي وَلَا يَمْنَعُ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ، وَلَكِنْ

لَا يَخُصُّ اللهَ فِي مُعَامَلَتِهِ وَعُبُودِيَّتِهِ، بَلْ يَعْمَلُ لِحَظِّ نَفْسِهِ تَارَةً، وَلِطَلَبِ الدُّنْيَا تَارَةً، وَلِطَلَبِ الرِّفْعَةِ وَالْمَنْزِلَةِ وَالْجَاهِ عِنْدَ الْخَلْقِ تَارَةً، فَلِلَّهِ مِنْ عَمَلِهِ وَسَعْيِهِ نَصِيبٌ، وَلِنَفْسِهِ وَحَظِّهِ وَهَوَاهُ نَصِيبٌ، وَلِلشَّيْطَانِ نَصِيبٌ، وَلِلْخَلْقِ نَصِيبٌ، وَهَذَا حَالُ أَكْثَرِ النَّاسِ، وَهُوَ الشِّرْكُ الَّذِي قَالَ فِيهِ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِيمَا رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ: «الشِّرْكُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ، قَالُوا: كَيْفَ نَنْجُو مِنْهُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا أَعْلَمُ» .

فَالرِّيَاءُ كُلُّهُ شِرْكٌ، قَالَ تَعَالَى: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} [سُورَةُ الْكَهْفِ: ١١٠] .

أَيْ: كَمَا أَنَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ، وَلَا إِلَهَ سِوَاهُ، فَكَذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ الْعِبَادَةُ لَهُ وَحْدَهُ، فَكَمَا تَفَرَّدَ بِالْإِلَهِيَّةِ يَجِبُ أَنْ يُفْرَدَ بِالْعُبُودِيَّةِ، فَالْعَمَلُ الصَّالِحُ هُوَ الْخَالِي مِنَ الرِّيَاءِ الْمُقَيَّدُ بِالسُّنَّةِ.

وَكَانَ مِنْ دُعَاءِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ – ﷺ -: اللَّهُمَّ اجْعَلْ عَمَلِي كُلَّهُ صَالِحًا وَاجْعَلْهُ لِوَجْهِكَ خَالِصًا، وَلَا تَجْعَلْ لِأَحَدٍ فِيهِ شَيْئًا.

وَهَذَا الشِّرْكُ فِي الْعِبَادَةِ يُبْطِلُ ثَوَابَ الْعَمَلِ، وَقَدْ يُعَاقَبُ عَلَيْهِ إِذَا كَانَ الْعَمَلُ وَاجِبًا، فَإِنَّهُ يُنْزِلُهُ مَنْزِلَةَ مَنْ لَمْ يَعْمَلْهُ، فَيُعَاقَبُ عَلَى تَرْكِ الْأَمْرِ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ إِنَّمَا أَمَرَ بِعِبَادَتِهِ عِبَادَةً خَالِصَةً، قَالَ تَعَالَى: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ} [الْبَيِّنَةِ: ٥] .

فَمَنْ لَمْ يُخْلِصْ للهِ فِي عِبَادَتِهِ لَمْ يَفْعَلْ مَا أُمِرَ بِهِ، بَلِ الَّذِي أَتَى بِهِ شَيْءٌ غَيْرُ الْمَأْمُورِ بِهِ، فَلَا يَصِحُّ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهُ، وَيَقُولُ اللهُ: " «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، فَمَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ مَعِي فِيهِ غَيْرِي فَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ بِهِ، وَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ» ".

أَقْسَامُ الشِّرْكِ

وَهَذَا الشِّرْكُ يَنْقَسِمُ إِلَى مَغْفُورٍ وَغَيْرِ مَغْفُورٍ، وَأَكْبَرَ وَأَصْغَرَ، وَالنَّوْعُ الْأَوَّلُ يَنْقَسِمُ إِلَى كَبِيرٍ وَأَكْبَرَ، وَلَيْسَ شَيْءٌ مِنْهُ مَغْفُورٌ، فَمِنْهُ الشِّرْكُ بِاللهِ فِي الْمَحَبَّةِ وَالتَّعْظِيمِ: أَنْ يُحِبَّ مَخْلُوقًا كَمَا يُحِبُّ اللهَ، فَهَذَا مِنَ الشِّرْكِ الَّذِي لَا يَغْفِرُهُ اللهُ، وَهُوَ الشِّرْكُ الَّذِي قَالَ سُبْحَانَهُ فِيهِ: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ

يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا للهِ} [سُورَةُ الْبَقَرَةِ: ١٦٥]

وَقَالَ أَصْحَابُ هَذَا الشِّرْكِ لِآلِهَتِهِمْ وَقَدْ جَمَعَهُمُ الْجَحِيمُ: {تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ - إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [سُورَةُ الشُّعَرَاءِ: ٩٧ - ٩٨].

وَمَعْلُومٌ أَنَّهُمْ مَا سَوَّوْهُمْ بِهِ سُبْحَانَهُ فِي الْخَلْقِ، وَالرِّزْقِ، وَالْإِمَاتَةِ، وَالْإِحْيَاءِ، وَالْمُلْكِ، وَالْقُدْرَةِ، وَإِنَّمَا سَوَّوْهُمْ بِهِ فِي الْحُبِّ، وَالتَّأَلُّهِ، وَالْخُضُوعِ لَهُمْ وَالتَّذَلُّلِ، وَهَذَا غَايَةُ الْجَهْلِ وَالظُّلْمِ، فَكَيْفَ يُسَوَى التُّرَابُ بِرَبِّ الْأَرْبَابِ، وَكَيْفَ يُسَوَى الْعَبِيدُ بِمَالِكِ الرِّقَابِ، وَكَيْفَ يُسَوَى الْفَقِيرُ بِالذَّاتِ الضَّعِيفُ بِالذَّاتِ الْعَاجِزُ بِالذَّاتِ الْمُحْتَاجُ بِالذَّاتِ، الَّذِي لَيْسَ لَهُ مِنْ ذَاتِهِ إِلَّا الْعَدَمُ، بِالْغَنِيِّ بِالذَّاتِ، الْقَادِرِ بِالذَّاتِ، الَّذِي غِنَاهُ، وَقُدْرَتُهُ وَمُلْكُهُ وَجُودُهُ، وَإِحْسَانُهُ، وَعِلْمُهُ، وَرَحْمَتُهُ، وَكَمَالُهُ الْمُطْلَقُ التَّامُّ مِنْ لَوَازِمِ ذَاتِهِ؟

فَأَيُّ ظُلْمٍ أَقْبَحُ مِنْ هَذَا؟ وَأَيُّ حُكْمٍ أَشَدُّ جَوْرًا مِنْهُ؟ حَيْثُ عَدَلَ مَنْ لَا عِدْلَ لَهُ بِخَلْقِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {الْحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ - ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} [سُورَةُ الْأَنْعَامِ: ١].

فَعَدَلَ الْمُشْرِكُ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ، بِمَنْ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ وَلَا لِغَيْرِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ، فَيَا لَكَ مِنْ عَدْلٍ تَضَمَّنَ أَكْبَرَ الظُّلْمِ وَأَقْبَحَهُ.

[الشِّرْكُ فِي الْأَفْعَالِ وَالْأَقْوَالِ وَالْإِرَادَاتِ وَالنِّيَّاتِ]

وَيَتْبَعُ هَذَا الشِّرْكَ الشِّرْكُ بِهِ سُبْحَانَهُ فِي الْأَفْعَالِ، وَالْأَقْوَالِ، وَالْإِرَادَاتِ، وَالنِّيَّاتِ، فَالشِّرْكُ فِي الْأَفْعَالِ كَالسُّجُودِ لِغَيْرِهِ، وَالطَّوَافِ بِغَيْرِ بَيْتِهِ، وَحَلْقِ الرَّأْسِ عُبُودِيَّةً وَخُضُوعًا لِغَيْرِهِ، وَتَقْبِيلِ الْأَحْجَارِ غَيْرِ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ الَّذِي هُوَ يَمِينُ اللهِ فِي الْأَرْضِ، وَتَقْبِيلِ الْقُبُورِ وَاسْتِلَامِهَا، وَالسُّجُودِ لَهَا، وَقَدْ لَعَنَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَنِ اتَّخَذَ قُبُورَ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ مَسَاجِدَ يُصَلِّي للهِ فِيهَا، فَكَيْفَ بِمَنِ اتَّخَذَ الْقُبُورَ أَوْثَانًا يَعْبُدُهَا مِنْ دُونِ اللهِ؟

فَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ - ﷺ - أَنَّهُ قَالَ: «لَعَنَ اللهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ» وَفِي الصَّحِيحِ عَنْهُ: «إِنَّ شِرَارَ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَالَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ

مَسَاجِدَ» .

وَفِي الصَّحِيحِ أَيْضًا عَنْهُ: «إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ» .

وَفِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ – رضي الله عنه – وَصَحِيحِ ابْنِ حِبَّانَ عَنْهُ – ﷺ –: «لَعَنَ اللهُ زَوَّارَاتِ الْقُبُورِ، وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ» .

وَقَالَ: «اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ» .

وَقَالَ: «إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، كَانَ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ، بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ، أُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» .

فَهَذَا حَالُ مَنْ سَجَدَ للهِ فِي مَسْجِدٍ عَلَى قَبْرٍ، فَكَيْفَ حَالُ مَنْ سَجَدَ لِلْقَبْرِ نَفْسِهِ؟

وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ – ﷺ –: «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ» ، وَقَدْ حَمَى النَّبِيُّ – ﷺ – جَانِبَ التَّوْحِيدِ أَعْظَمَ حِمَايَةٍ، حَتَّى نَهَى عَنْ صَلَاةِ التَّطَوُّعِ للهِ سُبْحَانَهُ عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَعِنْدَ غُرُوبِهَا؛ لِئَلَّا يَكُونَ ذَرِيعَةً إِلَى التَّشَبُّهِ بِعُبَّادِ الشَّمْسِ الَّذِينَ يَسْجُدُونَ لَهَا فِي هَاتَيْنِ الْحَالَتَيْنِ.

وَسَدَّ الذَّرِيعَةَ بِأَنْ مَنَعَ الصَّلَاةَ بَعْدَ الْعَصْرِ وَالصُّبْحِ؛ لِاتِّصَالِ هَذَيْنِ الْوَقْتَيْنِ بِالْوَقْتَيْنِ اللَّذَيْنِ يَسْجُدُ الْمُشْرِكُونَ فِيهِمَا لِلشَّمْسِ.

وَأَمَّا السُّجُودُ لِغَيْرِ اللهِ فَقَالَ: «لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ إِلَّا للهِ» .

وَ " لَا يَنْبَغِي " فِي كَلَامِ اللهِ وَرَسُولِهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لِلَّذِي هُوَ فِي غَايَةِ الِامْتِنَاعِ شَرْعًا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا} [سُورَةُ مَرْيَمَ: ٩٢] .

وَقَوْلِهِ: {وَمَا يَنْبَغِي لَهُ} [سُورَةُ يس: ٦٩] .

وَقَوْلِهِ: {وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ – وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ} [سُورَةُ الشُّعَرَاءِ: ٢١٠ – ٢١١] .

وَقَوْلِهِ: {مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ} [سُورَةُ الْفُرْقَانِ: ١٨]

[الشِّرْكُ فِي اللَّفْظِ]

وَمِنَ الشِّرْكِ بِهِ سُبْحَانَهُ الشِّرْكُ بِهِ فِي اللَّفْظِ، كَالْحَلِفِ بِغَيْرِهِ، كَمَا رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ عَنْهُ - ﷺ - أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ» صَحَّحَهُ الْحَاكِمُ وَابْنُ حِبَّانَ.

وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ الْقَائِلِ لِلْمَخْلُوقِ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ، كَمَا «ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - أَنَّهُ قَالَ لَهُ رَجُلٌ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ، فَقَالَ: أَجَعَلْتَنِي لِلَّهِ نِدًّا؟ قُلْ مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ.»

هَذَا مَعَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَثْبَتَ لِلْعَبْدِ مَشِيئَةً، كَقَوْلِهِ: {لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ} [سُورَةُ التَّكْوِيرِ: ٢٨] فَكَيْفَ بِمَنْ يَقُولُ: أَنَا مُتَوَكِّلٌ عَلَى اللَّهِ وَعَلَيْكَ، وَأَنَا فِي حَسْبِ اللَّهِ وَحَسْبِكَ، وَمَا لِي إِلَّا اللَّهُ وَأَنْتَ، وَهَذَا مِنَ اللَّهِ وَمِنْكَ، وَهَذَا مِنْ بَرَكَاتِ اللَّهِ وَبَرَكَاتِكَ، وَاللَّهُ لِي فِي السَّمَاءِ وَأَنْتَ فِي الْأَرْضِ.

أَوْ يَقُولُ: وَاللَّهِ، وَحَيَاةِ فُلَانٍ، أَوْ يَقُولُ نَذْرًا لِلَّهِ وَلِفُلَانٍ، وَأَنَا تَائِبٌ لِلَّهِ وَلِفُلَانٍ، أَوْ أَرْجُو اللَّهَ وَفُلَانًا، وَنَحْوُ ذَلِكَ.

فَوَازِنْ بَيْنَ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ وَبَيْنَ قَوْلِ الْقَائِلِ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ. ثُمَّ انْظُرْ أَيُّهُمَا أَفْحَشُ، يَتَبَيَّنْ لَكَ أَنَّ قَائِلَهَا أَوْلَى بِجَوَابِ النَّبِيِّ - ﷺ - لِقَائِلِ تِلْكَ الْكَلِمَةِ، وَأَنَّهُ إِذَا كَانَ قَدْ جَعَلَهُ نِدًّا لِلَّهِ بِهَا، فَهَذَا قَدْ جَعَلَ مَنْ لَا يُدَانِي رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ - بَلْ لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ مِنْ أَعْدَائِهِ - نِدًّا لِرَبِّ الْعَالَمِينَ. فَالسُّجُودُ، وَالْعِبَادَةُ، وَالتَّوَكُّلُ، وَالْإِنَابَةُ، وَالتَّقْوَى، وَالْخَشْيَةُ، وَالْحَسْبُ، وَالتَّوْبَةُ، وَالنَّذْرُ، وَالْحَلِفُ، وَالتَّسْبِيحُ، وَالتَّكْبِيرُ، وَالتَّهْلِيلُ، وَالتَّحْمِيدُ، وَالِاسْتِغْفَارُ، وَحَلْقُ الرَّأْسِ خُضُوعًا وَتَعَبُّدًا، وَالطَّوَافُ بِالْبَيْتِ، وَالدُّعَاءُ، كُلُّ ذَلِكَ مَحْضُ حَقِّ اللَّهِ، لَا يَصْلُحُ وَلَا يَنْبَغِي لِسِوَاهُ: مِنْ مَلَكٍ مُقَرَّبٍ وَلَا نَبِيٍّ مُرْسَلٍ.

وَفِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ «أَنَّ رَجُلًا أُتِيَ بِهِ إِلَى النَّبِيِّ - ﷺ - قَدْ أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَلَمَّا وَقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ، قَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَتُوبُ إِلَيْكَ وَلَا أَتُوبُ إِلَى مُحَمَّدٍ، فَقَالَ: عَرَفَ الْحَقَّ لِأَهْلِهِ» .

[الشِّرْكُ فِي الْإِرَادَاتِ وَالنِّيَّاتِ]

وَأَمَّا الشِّرْكُ فِي الْإِرَادَاتِ وَالنِّيَّاتِ، فَذَلِكَ الْبَحْرُ الَّذِي لَا سَاحِلَ لَهُ، وَقَلَّ مَنْ يَنْجُو مِنْهُ، مَنْ أَرَادَ بِعَمَلِهِ غَيْرَ وَجْهِ اللَّهِ، وَنَوَى شَيْئًا غَيْرَ التَّقَرُّبِ إِلَيْهِ، وَطَلَبَ الْجَزَاءَ مِنْهُ، فَقَدْ أَشْرَكَ فِي نِيَّتِهِ وَإِرَادَتِهِ.

وَالْإِخْلَاصُ: أَنْ يُخْلِصَ للهِ فِي أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ وَإِرَادَتِهِ وَنِيَّتِهِ، وَهَذِهِ هِيَ الْحَنِيفِيَّةُ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا عِبَادَهُ كُلَّهُمْ، وَلَا يَقْبَلُ مِنْ أَحَدٍ غَيْرَهَا، وَهِيَ حَقِيقَةُ الْإِسْلَامِ.

{وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ] .

وَهِيَ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ الَّتِي مَنْ رَغِبَ عَنْهَا فَهُوَ مِنْ أَسْفَهِ السُّفَهَاءِ.

هُوَ التَّشَبُّهُ بِالْخَالِقِ وَتَشْبِيهُ الْمَخْلُوقِ بِهِ
خَصَائِصِ الْإِلَهِيَّةِ التَّفَرُّدَ بِمِلْكِ الضُّرِّ وَالنَّفْعِ وَالْعَطَاءِ وَالْمَنْعِ وَمِنْ خَصَائِصِ الْإِلَهِيَّةِ: الْكَمَالُ الْمُطْلَقُ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ الَّذِي وَمِنْ خَصَائِصِ الْإِلَهِيَّةِ: الْعُبُودِيَّةُ فَمِنْ خَصَائِصِ الْإِلَهِيَّةِ السُّجُودُ وَمِنْهَا: التَّوَكُّلُ وَمِنْهَا: التَّوْبَةُ وَمِنْهَا: الْحَلِفُ بِاسْمِهِ
سُوءُ الظَّنِّ بِاللَّهِ
الشِّرْكُ وَالْكِبْرُ
الْقَوْلُ عَلَى اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ

إِذَا عَرَفْتَ هَذِهِ الْمُقَدِّمَةَ انْفَتَحَ لَكَ بَابُ الْجَوَابِ عَنِ السُّؤَالِ الْمَذْكُورِ، فَنَقُولُ، وَمِنَ اللهِ وَحْدَهُ نَسْتَمِدُّ الصَّوَابَ:

حَقِيقَةُ الشِّرْكِ: هُوَ التَّشَبُّهُ بِالْخَالِقِ وَتَشْبِيهُ الْمَخْلُوقِ بِهِ، هَذَا هُوَ التَّشْبِيهُ فِي الْحَقِيقَةِ، لَا إِثْبَاتُ صِفَاتِ الْكَمَالِ الَّتِي وَصَفَ اللهُ بِهَا نَفْسَهُ، وَوَصَفَهُ بِهَا رَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَعَكَسَ الْأَمْرَ مَنْ نَكَسَ اللهُ قَلْبَهُ وَأَعْمَى بَصِيرَتَهُ وَأَرْكَسَهُ بِكَسْبِهِ، وَجَعَلَ التَّوْحِيدَ تَشْبِيهًا وَالتَّشْبِيهَ تَعْظِيمًا وَطَاعَةً، فَالْمُشْرِكُ مُشَبِّهٌ لِلْمَخْلُوقِ بِالْخَالِقِ فِي خَصَائِصِ الْإِلَهِيَّةِ.

فَإِنَّ مِنْ خَصَائِصِ الْإِلَهِيَّةِ التَّفَرُّدَ بِمِلْكِ الضُّرِّ وَالنَّفْعِ وَالْعَطَاءِ وَالْمَنْعِ، وَذَلِكَ يُوجِبُ تَعْلِيقَ الدُّعَاءِ وَالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ وَالتَّوَكُّلِ بِهِ وَحْدَهُ، فَمَنْ عَلَّقَ ذَلِكَ بِمَخْلُوقٍ فَقَدْ شَبَّهَهُ بِالْخَالِقِ وَجَعَلَ مَنْ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، وَلَا مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا، فَضْلًا عَنْ غَيْرِهِ - شَبِيهًا بِمَنْ لَهُ الْأَمْرُ كُلُّهُ، فَأَزِمَّةُ الْأُمُورِ كُلِّهَا بِيَدَيْهِ، وَمَرْجِعُهَا إِلَيْهِ، فَمَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَى، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعَ، بَلْ إِذَا فَتَحَ لِعَبْدِهِ بَابَ رَحْمَتِهِ لَمْ يُمْسِكْهَا أَحَدٌ، وَإِنْ أَمْسَكَهَا عَنْهُ لَمْ يُرْسِلْهَا إِلَيْهِ أَحَدٌ.

فَمِنْ أَقْبَحِ التَّشْبِيهِ: تَشْبِيهُ هَذَا الْعَاجِزِ الْفَقِيرِ بِالذَّاتِ بِالْقَادِرِ الْغَنِيِّ بِالذَّاتِ.

وَمِنْ خَصَائِصِ الْإِلَهِيَّةِ: الْكَمَالُ الْمُطْلَقُ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ الَّذِي لَا نَقْصَ فِيهِ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ، وَذَلِكَ يُوجِبُ أَنْ تَكُونَ الْعِبَادَةُ كُلُّهَا لَهُ وَحْدَهُ، وَالتَّعْظِيمُ وَالْإِجْلَالُ وَالْخَشْيَةُ وَالدُّعَاءُ وَالرَّجَاءُ وَالْإِنَابَةُ وَالتَّوْبَةُ وَالتَّوَكُّلُ وَالِاسْتِعَانَةُ، وَغَايَةُ الذُّلِّ مَعَ غَايَةِ الْحُبِّ - كُلُّ ذَلِكَ يَجِبُ عَقْلًا وَشَرْعًا وَفِطْرَةً أَنْ يَكُونَ لَهُ وَحْدَهُ، وَيَمْتَنِعُ عَقْلًا وَشَرْعًا وَفِطْرَةً أَنْ يَكُونَ لِغَيْرِهِ، فَمَنْ جَعَلَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ لِغَيْرِهِ فَقَدْ شَبَّهَ ذَلِكَ الْغَيْرَ بِمَنْ لَا شَبِيهَ لَهُ وَلَا مَثِيلَ وَلَا نِدَّ لَهُ، وَذَلِكَ أَقْبَحُ التَّشْبِيهِ وَأَبْطَلُهُ، وَلِشِدَّةِ قُبْحِهِ وَتَضَمُّنِهِ غَايَةَ الظُّلْمِ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ عِبَادَهُ أَنَّهُ لَا يَغْفِرُهُ، مَعَ أَنَّهُ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ.

وَمِنْ خَصَائِصِ الْإِلَهِيَّةِ: الْعُبُودِيَّةُ الَّتِي قَامَتْ عَلَى سَاقَيْنِ لَا قِوَامَ لَهَا بِدُونِهِمَا: غَايَةِ الْحُبِّ، مَعَ غَايَةِ الذُّلِّ. هَذَا تَمَامُ الْعُبُودِيَّةِ، وَتَفَاوُتُ مَنَازِلِ الْخَلْقِ فِيهَا بِحَسَبِ تَفَاوُتِهِمْ فِي هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ.

فَمَنْ أَعْطَى حُبَّهُ وَذُلَّهُ وَخُضُوعَهُ لِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ شَبَّهَهُ بِهِ فِي خَالِصِ حَقِّهِ، وَهَذَا مِنَ الْمُحَالِ أَنْ تَجِيءَ بِهِ شَرِيعَةٌ مِنَ الشَّرَائِعِ، وَقُبْحُهُ مُسْتَقِرٌّ فِي كُلِّ فِطْرَةٍ وَعَقْلٍ، وَلَكِنْ غَيَّرَتِ الشَّيَاطِينُ فِطَرَ الْخَلْقِ وَعُقُولَهُمْ وَأَفْسَدَتْهَا عَلَيْهِمْ، وَاجْتَالَتْهُمْ عَنْهَا، وَمَضَى عَلَى الْفِطْرَةِ الْأُولَى مَنْ سَبَقَتْ لَهُ مِنَ اللهِ الْحُسْنَى، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رُسُلَهُ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ كُتُبَهُ بِمَا يُوَافِقُ فِطَرَهُمْ وَعُقُولَهُمْ، فَازْدَادُوا بِذَلِكَ نُورًا عَلَى نُورٍ، {يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ} [النُّور: ٣٥] .

إِذَا عُرِفَ هَذَا فَمِنْ خَصَائِصِ الْإِلَهِيَّةِ السُّجُودُ، فَمَنْ سَجَدَ لِغَيْرِهِ فَقَدْ شَبَّهَ الْمَخْلُوقَ بِهِ.

وَمِنْهَا: التَّوَكُّلُ، فَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَى غَيْرِهِ فَقَدْ شَبَّهَهُ بِهِ.

وَمِنْهَا: التَّوْبَةُ، فَمَنْ تَابَ لِغَيْرِهِ فَقَدْ شَبَّهَهُ بِهِ.

وَمِنْهَا: الْحَلِفُ بِاسْمِهِ تَعْظِيمًا وَإِجْلَالًا لَهُ، فَمَنْ حَلَفَ بِغَيْرِهِ فَقَدْ شَبَّهَهُ بِهِ، هَذَا فِي جَانِبِ التَّشْبِيهِ.

وَأَمَّا فِي جَانِبِ التَّشَبُّهِ بِهِ: فَمَنْ تَعَاظَمَ وَتَكَبَّرَ وَدَعَا النَّاسَ إِلَى إِطْرَائِهِ فِي الْمَدْحِ وَالتَّعْظِيمِ وَالْخُضُوعِ وَالرَّجَاءِ، وَتَعْلِيقِ الْقَلْبِ بِهِ خَوْفًا وَرَجَاءً وَالْتِجَاءً وَاسْتِعَانَةً، فَقَدْ تَشَبَّهَ بِاللهِ وَنَازَعَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ، وَهُوَ حَقِيقٌ بِأَنْ يُهِينَهُ غَايَةَ الْهَوَانِ، وَيُذِلَّهُ غَايَةَ الذُّلِّ، وَيَجْعَلَهُ تَحْتَ أَقْدَامِ خَلْقِهِ.

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْهُ - ﷺ - قَالَ: «يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: " الْعَظَمَةُ إِزَارِي، وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا عَذَّبْتُهُ ".»

وَإِذَا كَانَ الْمُصَوِّرُ الَّذِي يَصْنَعُ الصُّورَةَ بِيَدِهِ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِتَشَبُّهِهِ بِاللهِ فِي مُجَرَّدِ الصُّورَةِ، فَمَا الظَّنُّ بِالتَّشَبُّهِ بِاللهِ فِي الرُّبُوبِيَّةِ وَالْإِلَهِيَّةِ؟

كَمَا قَالَ النَّبِيُّ - ﷺ -: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمُصَوِّرُونَ، يُقَالُ لَهُمْ أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ» .

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ - ﷺ - أَنَّهُ قَالَ: «قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: [وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ خَلْقًا كَخَلْقِي، فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً، فَلْيَخْلُقُوا شَعِيرَةً] » ، فَنَبَّهَ بِالذَّرَّةِ وَالشَّعِيرَةِ عَلَى مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهَا وَأَكْبَرُ.

وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ هَذَا حَالُ مَنْ تَشَبَّهَ بِهِ فِي صَنْعَةِ صُورَةٍ، فَكَيْفَ حَالُ مَنْ تَشَبَّهَ بِهِ فِي خَوَاصِّ رُبُوبِيَّتِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ؟ وَكَذَلِكَ مَنْ تَشَبَّهَ بِهِ فِي الِاسْمِ الَّذِي لَا يَنْبَغِي إِلَّا للهِ وَحْدَهُ، كَمَلِكِ الْمُلُوكِ، وَحَاكِمِ الْحُكَّامِ، وَنَحْوِهِ.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ أَخْنَعَ الْأَسْمَاءِ عِنْدَ اللهِ رَجُلٌ يُسَمَّى بِشَاهَانْ شَاهْ - أَيْ مَلِكِ الْمُلُوكِ - لَا مَلِكَ إِلَّا اللهُ» وَفِي لَفْظٍ: «أَغِيظُ رَجُلٍ عَلَى اللهِ رَجُلٌ يُسَمَّى بِمَلِكِ الْأَمْلَاكِ».

فَهَذَا مَقْتُ اللهِ وَغَضَبُهُ عَلَى مَنْ تَشَبَّهَ بِهِ فِي الِاسْمِ الَّذِي لَا يَنْبَغِي إِلَّا لَهُ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ مَلِكُ الْمُلُوكِ وَحْدَهُ، وَهُوَ حَاكِمُ الْحُكَّامِ وَحْدَهُ، فَهُوَ الَّذِي يَحْكُمُ عَلَى الْحُكَّامِ كُلِّهِمْ، وَيَقْضِي عَلَيْهِمْ كُلِّهِمْ، لَا غَيْرُهُ.

[سُوءُ الظَّنِّ بِاللهِ]

إِذَا تَبَيَّنَ هَذَا فَهَاهُنَا أَصْلٌ عَظِيمٌ يَكْشِفُ سِرَّ الْمَسْأَلَةِ، وَهُوَ أَنَّ أَعْظَمَ الذُّنُوبِ عِنْدَ اللهِ إِسَاءَةُ الظَّنِّ بِهِ، فَإِنَّ الْمُسِيءَ بِهِ الظَّنَّ قَدْ ظَنَّ بِهِ خِلَافَ كَمَالِهِ الْمُقَدَّسِ، وَظَنَّ بِهِ مَا يُنَاقِضُ أَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ، وَلِهَذَا تَوَعَّدَ اللهُ سُبْحَانَهُ الظَّانِّينَ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ بِمَا لَمْ يَتَوَعَّدْ بِهِ غَيْرَهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [سُورَةُ الْفَتْحِ: ٦] .

وَقَالَ تَعَالَى لِمَنْ أَنْكَرَ صِفَةً مِنْ صِفَاتِهِ: {وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [سُورَةُ فُصِّلَتْ: ٢٣] .

قَالَ تَعَالَى عَنْ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ أَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ: {مَاذَا تَعْبُدُونَ - أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ - فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [الصَّافَّاتِ: ٨٥ - ٨٧] .

أَيْ فَمَا ظَنُّكُمْ أَنْ يُجَازِيَكُمْ بِهِ إِذَا لَقِيتُمُوهُ وَقَدْ عَبَدْتُمْ غَيْرَهُ؟ وَمَا ظَنَنْتُمْ بِهِ حِينَ عَبَدْتُمْ مَعَهُ غَيْرَهُ؟ وَمَا ظَنَنْتُمْ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَرُبُوبِيَّتِهِ مِنَ النَّقْصِ حَتَّى أَحْوَجَكُمْ ذَلِكَ إِلَى عُبُودِيَّةِ غَيْرِهِ؟ فَلَوْ ظَنَنْتُمْ بِهِ مَا هُوَ أَهْلُهُ مِنْ أَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّهُ غَنِيٌّ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ، وَكُلُّ مَا سِوَاهُ فَقِيرٌ إِلَيْهِ، وَأَنَّهُ قَائِمٌ بِالْقِسْطِ عَلَى خَلْقِهِ، وَأَنَّهُ الْمُنْفَرِدُ بِتَدْبِيرِ خَلْقِهِ لَا يُشْرِكُهُ فِيهِ غَيْرُهُ، وَالْعَالِمُ بِتَفَاصِيلِ الْأُمُورِ، فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ مِنْ خَلْقِهِ، وَالْكَافِي لَهُمْ وَحْدَهُ فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى مُعِينٍ، وَالرَّحْمَنُ بِذَاتِهِ، فَلَا يَحْتَاجُ فِي رَحْمَتِهِ إِلَى مَنْ يَسْتَعْطِفُهُ، وَهَذَا بِخِلَافِ الْمُلُوكِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الرُّؤَسَاءِ، فَإِنَّهُمْ يَحْتَاجُونَ إِلَى مَنْ يُعَرِّفُهُمْ أَحْوَالَ الرَّعِيَّةِ وَحَوَائِجَهُمْ، وَيُعِينُهُمْ إِلَى قَضَاءِ

حَوَائِجِهِمْ، وَإِلَى مَنْ يَسْتَرْحِمُهُمْ وَيَسْتَعْطِفُهُمْ بِالشَّفَاعَةِ، فَاحْتَاجُوا إِلَى الْوَسَائِطِ ضَرُورَةً، لِحَاجَتِهِمْ وَضَعْفِهِمْ وَعَجْزِهِمْ وَقُصُورِ عِلْمِهِمْ.

فَأَمَّا الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، الْغَنِيُّ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ الَّذِي وَسِعَتْ رَحْمَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ، فَإِدْخَالُ الْوَسَائِطِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ نَقْصٌ بِحَقِّ رُبُوبِيَّتِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ وَتَوْحِيدِهِ، وَظَنٌّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ، وَهَذَا يَسْتَحِيلُ أَنْ يَشْرَعَهُ لِعِبَادِهِ، وَيَمْتَنِعُ فِي الْعُقُولِ وَالْفِطَرِ جَوَازُهُ، وَقُبْحُهُ مُسْتَقِرٌّ فِي الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ فَوْقَ كُلِّ قَبِيحٍ.

يُوَضِّحُ هَذَا: أَنَّ الْعَابِدَ مُعَظِّمٌ لِمَعْبُودِهِ، مُتَأَلِّهٌ خَاضِعٌ ذَلِيلٌ لَهُ، وَالرَّبُّ تَعَالَى وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ كَمَالَ التَّعْظِيمِ وَالْجَلَالِ وَالتَّأَلُّهِ وَالْخُضُوعِ وَالذُّلِّ، وَهَذَا خَالِصُ حَقِّهِ، فَمِنْ أَقْبَحِ الظُّلْمِ أَنْ يُعْطِيَ حَقَّهُ لِغَيْرِهِ، أَوْ يُشْرِكَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ فِيهِ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ الَّذِي جُعِلَ شَرِيكَهُ فِي حَقِّهِ هُوَ عَبْدُهُ وَمَمْلُوكُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [سُورَةُ الرُّومِ: ٢٨].

أَيْ: إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ يَأْنَفُ أَنْ يَكُونَ مَمْلُوكُهُ شَرِيكَهُ فِي رِزْقِهِ، فَكَيْفَ تَجْعَلُونَ لِي مِنْ عَبِيدِي شُرَكَاءَ فِيمَا أَنَا بِهِ مُنْفَرِدٌ؟ وَهُوَ الْإِلَهِيَّةُ الَّتِي لَا تَنْبَغِي لِغَيْرِي، وَلَا تَصِحُّ لِسِوَايَ.

فَمَنْ زَعَمَ ذَلِكَ فَمَا قَدَرَنِي حَقَّ قَدْرِي، وَلَا عَظَّمَنِي حَقَّ تَعْظِيمِي، وَلَا أَفْرَدَنِي بِمَا أَنَا مُفْرَدٌ بِهِ وَحْدِي دُونَ خَلْقِي، فَمَا قَدَرَ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ عَبَدَ مَعَهُ غَيْرَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {يَاأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ - مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} [سُورَةُ الْحَجِّ: ٧٣ - ٧٤].

فَمَا قَدَرَ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ عَبَدَ مَعَهُ غَيْرَهُ، مِمَّنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى خَلْقِ أَضْعَفِ حَيَوَانٍ وَأَصْغَرِهِ، وَإِنْ سَلَبَهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا مِمَّا عَلَيْهِ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى اسْتِنْقَاذِهِ مِنْهُ، وَقَالَ تَعَالَى: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}

[سُورَةُ الزُّمَرِ: ٦٧] فَمَا قَدَرَ مَنْ هَذَا شَأْنُهُ وَعَظَمَتُهُ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ أَشْرَكَ مَعَهُ فِي عِبَادَتِهِ مَنْ لَيْسَ لَهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ أَلْبَتَّةَ، بَلْ هُوَ أَعْجَزُ شَيْءٍ وَأَضْعَفُهُ، فَمَا قَدَرَ الْقَوِيَّ الْعَزِيزَ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ أَشْرَكَ مَعَهُ الضَّعِيفَ الذَّلِيلَ.

وَكَذَلِكَ مَا قَدَرَهُ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ لَمْ يُرْسِلْ إِلَى خَلْقِهِ رَسُولًا، وَلَا أَنْزَلَ كِتَابًا، بَلْ نَسَبَهُ إِلَى مَا لَا يَلِيقُ بِهِ وَلَا يَحْسُنُ مِنْهُ، مِنْ إِهْمَالِ خَلْقِهِ وَتَضْيِيعِهِمْ وَتَرْكِهِمْ سُدًى، وَخَلْقِهِمْ بَاطِلًا وَعَبَثًا، وَلَا قَدَرَهُ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ نَفَى حَقَائِقَ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى وَصِفَاتِهِ الْعُلَا، فَنَفَى سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ وَإِرَادَتَهُ وَاخْتِيَارَهُ وَعُلُوَّهُ فَوْقَ خَلْقِهِ، وَكَلَامَهُ وَتَكْلِيمَهُ لِمَنْ شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ بِمَا يُرِيدُهُ، أَوْ نَفَى عُمُومَ قُدْرَتِهِ وَتَعَلُّقَهَا بِأَفْعَالِ عِبَادِهِ مِنْ طَاعَتِهِمْ وَمَعَاصِيهِمْ، فَأَخْرَجَهَا عَنْ قُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ وَخَلْقِهِ، وَجَعَلَهُمْ يَخْلُقُونَ لِأَنْفُسِهِمْ مَا يَشَاءُونَ بِدُونِ مَشِيئَةِ الرَّبِّ، فَيَكُونُ فِي مُلْكِهِ مَا لَا يَشَاءُ، وَيَشَاءُ مَا لَا يَكُونُ. تَعَالَى عَنْ قَوْلِ أَشْبَاهِ الْمَجُوسِ عُلُوًّا كَبِيرًا.

وَكَذَلِكَ مَا قَدَرَهُ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ يُعَاقِبُ عَبْدَهُ عَلَى مَا لَا يَفْعَلُهُ الْعَبْدُ، وَلَا لَهُ عَلَيْهِ قُدْرَةٌ، وَلَا تَأْثِيرٌ لَهُ فِيهِ أَلْبَتَّةَ، بَلْ هُوَ نَفْسُ فِعْلِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ، فَيُعَاقِبُ عَبْدَهُ عَلَى فِعْلِهِ هُوَ سُبْحَانَهُ الَّذِي جَبَرَ الْعَبْدَ عَلَيْهِ. وَجَبْرُهُ عَلَى الْفِعْلِ أَعْظَمُ مِنْ إِكْرَاهِ الْمَخْلُوقِ لِلْمَخْلُوقِ، وَإِذَا كَانَ مِنَ الْمُسْتَقِرِّ فِي الْفِطَرِ وَالْعُقُولِ أَنَّ السَّيِّدَ لَوْ أَكْرَهَ عَبْدَهُ عَلَى فِعْلٍ، أَوْ أَلْجَأَهُ إِلَيْهِ ثُمَّ عَاقَبَهُ عَلَيْهِ لَكَانَ قَبِيحًا، فَأَعْدَلُ الْعَادِلِينَ وَأَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ وَأَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ كَيْفَ يَجْبُرُ الْعَبْدَ عَلَى فِعْلٍ لَا يَكُونُ لِلْعَبْدِ فِيهِ صُنْعٌ وَلَا تَأْثِيرٌ، وَلَا هُوَ وَاقِعٌ بِإِرَادَتِهِ، بَلْ وَلَا هُوَ فِعْلُهُ أَلْبَتَّةَ، ثُمَّ يُعَاقِبُ عَلَيْهِ عُقُوبَةَ الْأَبَدِ؟ تَعَالَى اللهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا، وَقَوْلُ هَؤُلَاءِ شَرٌّ مِنْ أَقْوَالِ الْمَجُوسِ. وَالطَّائِفَتَانِ مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ.

وَكَذَلِكَ مَا قَدَرَهُ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ لَمْ يَصُنْهُ عَنْ نَتَنٍ وَلَا حُشٍّ، وَلَا مَكَانٍ يُرْغَبُ عَنْ ذِكْرِهِ بَلْ جَعَلَهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ، صَانَهُ عَنْ عَرْشِهِ أَنْ يَكُونَ مُسْتَوِيًا عَلَيْهِ: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} [سُورَةُ فَاطِرٍ: ١٠].

وَتَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ، وَتَنْزِلُ مِنْ عِنْدِهِ: {يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ}

فَصَانَهُ عَنِ اسْتِوَائِهِ عَلَى سَرِيرِ الْمُلْكِ، ثُمَّ جَعَلَهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ يَأْنَفُ الْإِنْسَانُ، بَلْ غَيْرُهُ مِنَ الْحَيَوَانِ أَنْ يَكُونَ فِيهِ.

وَمَا قَدَرَ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ نَفَى حَقِيقَةَ مَحَبَّتِهِ وَرَحْمَتِهِ وَرَأْفَتِهِ وَرِضَاهُ وَغَضَبِهِ وَمَقْتِهِ، وَلَا مَنْ نَفَى حَقِيقَةَ حِكْمَتِهِ الَّتِي هِيَ الْغَايَاتُ الْمَحْمُودَةُ الْمَقْصُودَةُ بِفِعْلِهِ، وَلَا مَنْ نَفَى حَقِيقَةَ فِعْلِهِ، وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ فِعْلًا اخْتِيَارِيًّا يَقُومُ بِهِ، بَلْ أَفْعَالُهُ مَفْعُولَاتٌ مُنْفَصِلَةٌ عَنْهُ، فَنَفَى حَقِيقَةَ مَجِيئِهِ وَإِتْيَانِهِ وَاسْتِوَائِهِ عَلَى عَرْشِهِ، وَتَكْلِيمِهِ مُوسَى مِنْ جَانِبِ الطُّورِ، وَمَجِيئِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ بَيْنَ عِبَادِهِ بِنَفْسِهِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَفْعَالِهِ وَأَوْصَافِ كَمَالِهِ، الَّتِي نَفَوْهَا وَزَعَمُوا أَنَّهُمْ بِنَفْيِهَا قَدَرُوهُ حَقَّ قَدْرِهِ.

وَكَذَلِكَ لَمْ يَقْدِرْهُ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ جَعَلَ لَهُ صَاحِبَةً وَوَلَدًا، أَوْ جَعَلَهُ سُبْحَانَهُ يَحِلُّ فِي جَمِيعِ مَخْلُوقَاتِهِ، أَوْ جَعَلَهُ عَيْنَ هَذَا الْوُجُودِ.

وَكَذَلِكَ لَمْ يَقْدِرْهُ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ رَفَعَ أَعْدَاءَ رَسُولِ اللهِ - ﷺ - وَأَهْلِ بَيْتِهِ وَأَعْلَى ذِكْرَهُمْ، وَجَعَلَ فِيهِمُ الْمُلْكَ وَالْخِلَافَةَ وَالْعِزَّ، وَوَضَعَ أَوْلِيَاءَ رَسُولِ اللهِ - ﷺ - وَأَهْلَ بَيْتِهِ وَأَهَانَهُمْ وَأَذَلَّهُمْ وَضَرَبَ عَلَيْهِمُ الذُّلَّ أَيْنَمَا ثُقِفُوا، وَهَذَا يَتَضَمَّنُ غَايَةَ الْقَدْحِ فِي جَنَابِ الرَّبِّ. تَعَالَى عَنْ قَوْلِ الرَّافِضَةِ عُلُوًّا كَبِيرًا.

وَهَذَا الْقَوْلُ مُشْتَقٌّ مِنْ قَوْلِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِي رَبِّ الْعَالَمِينَ أَنَّهُ أَرْسَلَ مَلِكًا ظَالِمًا، فَادَّعَى النُّبُوَّةَ لِنَفْسِهِ، وَكَذَبَ عَلَى اللهِ، وَمَكَثَ زَمَانًا طَوِيلًا يَكْذِبُ عَلَى اللهِ كُلَّ وَقْتٍ، وَيَقُولُ: قَالَ اللهُ كَذَا، وَأَمَرَ بِكَذَا، وَنَهَى عَنْ كَذَا، يَنْسَخُ شَرَائِعَ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ، وَيَسْتَبِيحُ دِمَاءَ أَتْبَاعِهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَحَرِيمَهُمْ، وَيَقُولُ: اللهُ أَبَاحَ لِي ذَلِكَ، وَالرَّبُّ تَعَالَى يُظْهِرُهُ وَيُؤَيِّدُهُ، وَيُعْلِيهِ، وَيُعِزُّهُ، وَيُجِيبُ دَعَوَاتِهِ، وَيُمَكِّنُهُ مِمَّنْ خَالَفَهُ، وَيُقِيمُ الْأَدِلَّةَ عَلَى صِدْقِهِ، وَلَا يُعَادِيهِ أَحَدٌ إِلَّا ظَفِرَ بِهِ، فَيُصَدِّقُهُ بِقَوْلِهِ وَفِعْلِهِ وَتَقْرِيرِهِ، وَيُحْدِثُ أَدِلَّةَ تَصْدِيقِهِ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا يَتَضَمَّنُ أَعْظَمَ الْقَدْحِ وَالطَّعْنِ فِي الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَعِلْمِهِ، وَحِكْمَتِهِ، وَرَحْمَتِهِ، وَرُبُوبِيَّتِهِ. تَعَالَى عَنْ قَوْلِ الْجَاحِدِينَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

فَوَازِنْ بَيْنَ قَوْلِ هَؤُلَاءِ، وَقَوْلِ إِخْوَانِهِمْ مِنَ الرَّافِضَةِ، تَجِدِ الْقَوْلَيْنِ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

رَضِيعَيْ لِبَانِ ثَدْيِ أُمٍّ تَقَاسَمَا ... بِأَسْحَمَ دَاجٍ عَوْضُ لَا تَتَفَرَّقُ

وَكَذَلِكَ لَمْ يَقْدِرْهُ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ قَالَ أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يُعَذِّبَ أَوْلِيَاءَهُ، وَمَنْ لَمْ يَعْصِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَيُدْخِلَهُمْ دَارَ الْجَحِيمِ، وَيُنَعِّمَ أَعْدَاءَهُ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَيُدْخِلَهُمْ دَارَ النَّعِيمِ، وَأَنَّ كِلَا الْأَمْرَيْنِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ سَوَاءٌ، وَإِنَّمَا الْخَبَرُ الْمَحْضُ جَاءَ عَنْهُ بِخِلَافِ ذَلِكَ، فَمَعْنَاهُ لِلْخَبَرِ لَا لِمُخَالَفَةِ حِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ.

وَقَدْ أَنْكَرَ سُبْحَانَهُ فِي كِتَابِهِ عَلَى مَنْ جَوَّزَ عَلَيْهِ ذَلِكَ غَايَةَ الْإِنْكَارِ، وَجَعَلَ الْحُكْمَ بِهِ مِنْ أَسْوَأِ الْأَحْكَامِ.

قَالَ تَعَالَى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ - أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ} [سُورَةُ ص: ٢٧ - ٢٨] .

وَقَالَ: {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ - وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} [سُورَةُ الْجَاثِيَةِ: ٢١ - ٢٢]

وَقَالَ: {أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ - مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ} [سُورَةُ الْقَلَمِ: ٣٥ - ٣٦]

وَكَذَلِكَ لَمْ يَقْدِرْهُ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ لَا يُحْيِي الْمَوْتَى، وَلَا يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ، وَلَا يَجْمَعُ خَلْقَهُ لِيَوْمٍ يُجَازِي فِيهِ الْمُحْسِنَ بِإِحْسَانِهِ وَالْمُسِيءَ بِإِسَاءَتِهِ، وَيَأْخُذُ لِلْمَظْلُومِ حَقَّهُ مِنْ ظَالِمِهِ، وَيُكْرِمُ الْمُتَحَمِّلِينَ الْمَشَاقَّ فِي هَذِهِ الدَّارِ مِنْ أَجْلِهِ وَفِي مَرْضَاتِهِ بِأَفْضَلِ كَرَامَتِهِ، وَيُبَيِّنُ لِخَلْقِهِ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ، وَيَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ.

وَكَذَلِكَ لَمْ يَقْدِرْهُ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ هَانَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ فَعَصَاهُ، وَنَهْيُهُ فَارْتَكَبَهُ، وَحَقُّهُ فَضَيَّعَهُ، وَذِكْرُهُ فَأَهْمَلَهُ، وَغَفَلَ قَلْبُهُ عَنْهُ، وَكَانَ هَوَاهُ آثَرَ عِنْدَهُ مِنْ طَلَبِ رِضَاهُ، وَطَاعَةُ الْمَخْلُوقِ أَهَمَّ مِنْ طَاعَتِهِ، فَلِلَّهِ الْفَضْلَةُ مِنْ قَلْبِهِ وَقَوْلِهِ وَعَمَلِهِ، هَوَاهُ الْمُقَدَّمُ فِي ذَلِكَ لِأَنَّهُ الْمُهِمُّ عِنْدَهُ، يَسْتَخِفُّ بِنَظَرِ اللَّهِ إِلَيْهِ،

وَاطِّلَاعِهِ عَلَيْهِ بِكُلِّ قَلْبِهِ وَجَوَارِحِهِ، وَيَسْتَحِي مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحِي مِنَ اللهِ، وَيَخْشَى النَّاسَ وَلَا يَخْشَى اللهَ، وَيُعَامِلُ الْخَلْقَ بِأَفْضَلِ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَإِنْ عَامَلَ اللهَ عَامَلَهُ بِأَهْوَنِ مَا عِنْدَهُ وَأَحْقَرِهِ، وَإِنْ قَامَ فِي خِدْمَةِ مَنْ يُحِبُّهُ مِنَ الْبَشَرِ قَامَ بِالْجِدِّ وَالِاجْتِهَادِ وَبَذْلِ النَّصِيحَةِ، وَقَدْ أَفْرَغَ لَهُ قَلْبَهُ وَجَوَارِحَهُ، وَقَدَّمَهُ عَلَى الْكَثِيرِ مِنْ مَصَالِحِهِ، حَتَّى إِذَا قَامَ فِي حَقِّ رَبِّهِ - إِنْ سَاعَدَ الْقَدَرُ - قَامَ قِيَامًا لَا يَرْضَاهُ مَخْلُوقٌ مِنْ مَخْلُوقٍ مِثْلِهِ، وَبَذَلَ لَهُ مِنْ مَالِهِ مَا يَسْتَحِي أَنْ يُوَاجِهَ بِهِ مَخْلُوقًا مِثْلَهُ، فَهَلْ قَدَرَ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ هَذَا وَصْفُهُ؟

وَهَلْ قَدَرَهُ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ شَارَكَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَدُوِّهِ فِي مَحْضِ حَقِّهِ مِنَ الْإِجْلَالِ وَالتَّعْظِيمِ وَالطَّاعَةِ وَالذُّلِّ وَالْخُضُوعِ وَالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ؟ فَلَوْ جَعَلَ لَهُ مِنْ أَقْرَبِ الْخَلْقِ إِلَيْهِ شَرِيكًا فِي ذَلِكَ لَكَانَ ذَلِكَ جَرَاءَةً وَتَوَثُّبًا عَلَى مَحْضِ حَقِّهِ وَاسْتِهَانَةً بِهِ وَتَشْرِيكًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ، وَلَا يَنْبَغِي وَلَا يَصْلُحُ إِلَّا لَهُ سُبْحَانَهُ، فَكَيْفَ وَإِنَّمَا شَرَكَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ أَبْغَضَ الْخَلْقِ إِلَيْهِ، وَأَهْوَنَهُمْ عَلَيْهِ، وَأَمْقَتَهُمْ عِنْدَهُ، وَهُوَ عَدُوُّهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ؟ فَإِنَّهُ مَا عُبِدَ مِنْ دُونِ اللهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ - وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ} [سُورَةُ يس: ٦٠ - ٦١].

وَلَمَّا عَبَدَ الْمُشْرِكُونَ الْمَلَائِكَةَ بِزَعْمِهِمْ وَقَعَتْ عِبَادَتُهُمْ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ لِلشَّيَاطِينِ، وَهُمْ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ الْمَلَائِكَةَ.

كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ - قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ} [سُورَةُ سَبَأٍ: ٤٠] فَالشَّيْطَانُ يَدْعُو الْمُشْرِكَ إِلَى عِبَادَتِهِ، وَيُوهِمُهُمْ أَنَّهُ مَلَكٌ، وَكَذَلِكَ عُبَّادُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالْكَوَاكِبِ، وَهِيَ الَّتِي تُخَاطِبُهُمْ، وَتَقْضِي لَهُمُ الْحَوَائِجَ، وَلِهَذَا إِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ قَارَنَهَا الشَّيْطَانُ، فَيَسْجُدُ لَهَا الْكُفَّارُ، فَيَقَعُ سُجُودُهُمْ لَهُ، وَكَذَلِكَ عِنْدَ غُرُوبِهَا، وَكَذَلِكَ مَنْ عَبَدَ الْمَسِيحَ وَأُمَّهُ لَمْ يَعْبُدْهُمَا وَإِنَّمَا عَبَدَ الشَّيْطَانَ.

فَإِنَّهُ يَزْعُمُ أَنَّهُ يَعْبُدُ مَنْ أَمَرَهُ بِعِبَادَتِهِ وَعِبَادَةِ أُمِّهِ، وَرَضِيَهَا لَهُمْ وَأَمَرَهُمْ بِهَا، وَهَذَا هُوَ الشَّيْطَانُ

الرَّجِيمُ، لَا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، فَنَزَلَ هَذَا كُلُّهُ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ - وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ} .

فَمَا عَبَدَ أَحَدٌ مِنْ بَنِي آدَمَ غَيْرَ اللهِ كَائِنًا مَنْ كَانَ إِلَّا وَقَعَتْ عِبَادَتُهُ لِلشَّيْطَانِ، فَيَسْتَمْتِعُ الْعَابِدُ بِالْمَعْبُودِ فِي حُصُولِ غَرَضِهِ، وَيَسْتَمْتِعُ الْمَعْبُودُ بِالْعَابِدِ فِي تَعْظِيمِهِ لَهُ، وَإِشْرَاكِهِ مَعَ اللهِ الَّذِي هُوَ غَايَةُ رِضَا الشَّيْطَانِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَامَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ} أَيْ: مِنْ إِغْوَائِهِمْ وَإِضْلَالِهِمْ {وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} [سُورَةُ الْأَنْعَامِ: ١٢٨] .

فَهَذِهِ إِشَارَةٌ لَطِيفَةٌ إِلَى السِّرِّ الَّذِي لِأَجْلِهِ كَانَ الشِّرْكُ أَكْبَرَ الْكَبَائِرِ عِنْدَ اللهِ، وَأَنَّهُ لَا يَغْفِرُهُ بِغَيْرِ التَّوْبَةِ مِنْهُ، وَأَنَّهُ يُوجِبُ الْخُلُودَ فِي الْعَذَابِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ تَحْرِيمُهُ وَقُبْحُهُ بِمُجَرَّدِ النَّهْيِ عَنْهُ، بَلْ يَسْتَحِيلُ عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ أَنْ يَشْرَعَ لِعِبَادِهِ عِبَادَةَ إِلَهٍ غَيْرِهِ، كَمَا يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ مَا يُنَاقِضُ أَوْصَافَ كَمَالِهِ، وَنُعُوتَ جَلَالِهِ، وَكَيْفَ يُظَنُّ بِالْمُنْفَرِدِ بِالرُّبُوبِيَّةِ وَالْإِلَهِيَّةِ وَالْعَظَمَةِ وَالْإِجْلَالِ أَنْ يَأْذَنَ فِي مُشَارَكَتِهِ فِي ذَلِكَ، أَوْ يَرْضَى بِهِ؟ تَعَالَى اللهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

[فَصْلٌ الشِّرْكُ وَالْكِبْرُ]

فَلَمَّا كَانَ الشِّرْكُ أَكْبَرَ شَيْءٍ مُنَافَاةً لِلْأَمْرِ الَّذِي خَلَقَ اللهُ لَهُ الْخَلْقَ، وَأَمَرَ لِأَجْلِهِ بِالْأَمْرِ، كَانَ مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ عِنْدَ اللهِ.

وَكَذَلِكَ الْكِبْرُ وَتَوَابِعُهُ كَمَا تَقَدَّمَ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ خَلَقَ الْخَلْقَ وَأَنْزَلَ الْكِتَابَ لِتَكُونَ الطَّاعَةُ لَهُ وَحْدَهُ، وَالشِّرْكُ وَالْكِبْرُ يُنَافِيَانِ ذَلِكَ.

وَلِذَلِكَ حَرَّمَ اللهُ الْجَنَّةَ عَلَى أَهْلِ الشِّرْكِ وَالْكِبْرِ، فَلَا يَدْخُلُهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ.

[الْقَوْلُ عَلَى اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ]

وَيَلِي ذَلِكَ فِي كِبَرِ الْمَفْسَدَةِ: الْقَوْلُ عَلَى اللهِ بِلَا عِلْمٍ فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَوَصْفُهُ بِضِدِّ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَوَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ، ﷺ . فَهَذَا أَشَدُّ شَيْءٍ مُنَاقَضَةً وَمُنَافَاةً لِكَمَالِ مَنْ لَهُ الْخَلْقُ

وَالْأَمْرُ، وَقَدْحٌ فِي نَفْسِ الرُّبُوبِيَّةِ وَخَصَائِصِ الرَّبِّ، فَإِنْ صَدَرَ ذَلِكَ عَنْ عِلْمٍ فَهُوَ عِنَادٌ أَقْبَحُ مِنَ الشِّرْكِ، وَأَعْظَمُ إِثْمًا عِنْدَ اللهِ. فَإِنَّ الْمُشْرِكَ الْمُقِرَّ بِصِفَاتِ الرَّبِّ خَيْرٌ مِنَ الْمُعَطِّلِ الْجَاحِدِ لِصِفَاتِ كَمَالِهِ، كَمَا أَنَّ مَنْ أَقَرَّ لِمَلِكٍ بِالْمُلْكِ، وَلَمْ يَجْحَدْ مُلْكَهُ وَلَا الصِّفَاتِ الَّتِي اسْتَحَقَّ بِهَا الْمُلْكَ، لَكِنْ جَعَلَ مَعَهُ شَرِيكًا فِي بَعْضِ الْأُمُورِ، يُقَرِّبُهُ إِلَيْهِ، خَيْرٌ مِمَّنْ جَحَدَ صِفَاتِ الْمَلِكِ وَمَا يَكُونُ بِهِ مَلِكًا، وَهَذَا أَمْرٌ مُسْتَقِرٌّ فِي سَائِرِ الْفِطَرِ وَالْعُقُولِ. فَأَيْنَ الْقَدْحُ فِي صِفَاتِ الْكَمَالِ وَالْجَحْدِ لَهَا، مِنْ عِبَادَةِ وَاسِطَةٍ بَيْنَ الْمَعْبُودِ الْحَقِّ وَبَيْنَ الْعَابِدِ، يَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ بِعِبَادَةِ تِلْكَ الْوَاسِطَةِ إِعْظَامًا لَهُ وَإِجْلَالًا؟

فَدَاءُ التَّعْطِيلِ هَذَا الدَّاءُ الْعُضَالُ الَّذِي لَا دَوَاءَ لَهُ، وَلِهَذَا حَكَى اللهُ عَنْ إِمَامِ الْمُعَطِّلَةِ فِرْعَوْنَ، أَنَّهُ أَنْكَرَ عَلَى مُوسَى مَا أَخْبَرَ بِهِ مِنْ أَنَّ رَبَّهُ فَوْقَ السَّمَاوَاتِ، فَقَالَ: {يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ - أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا} [سُورَةُ غَافِرٍ: ٣٦ - ٣٧]

وَاحْتَجَّ الشَّيْخُ أَبُو الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيُّ فِي كُتُبِهِ عَلَى الْمُعَطِّلَةِ بِهَذِهِ الْآيَةِ.

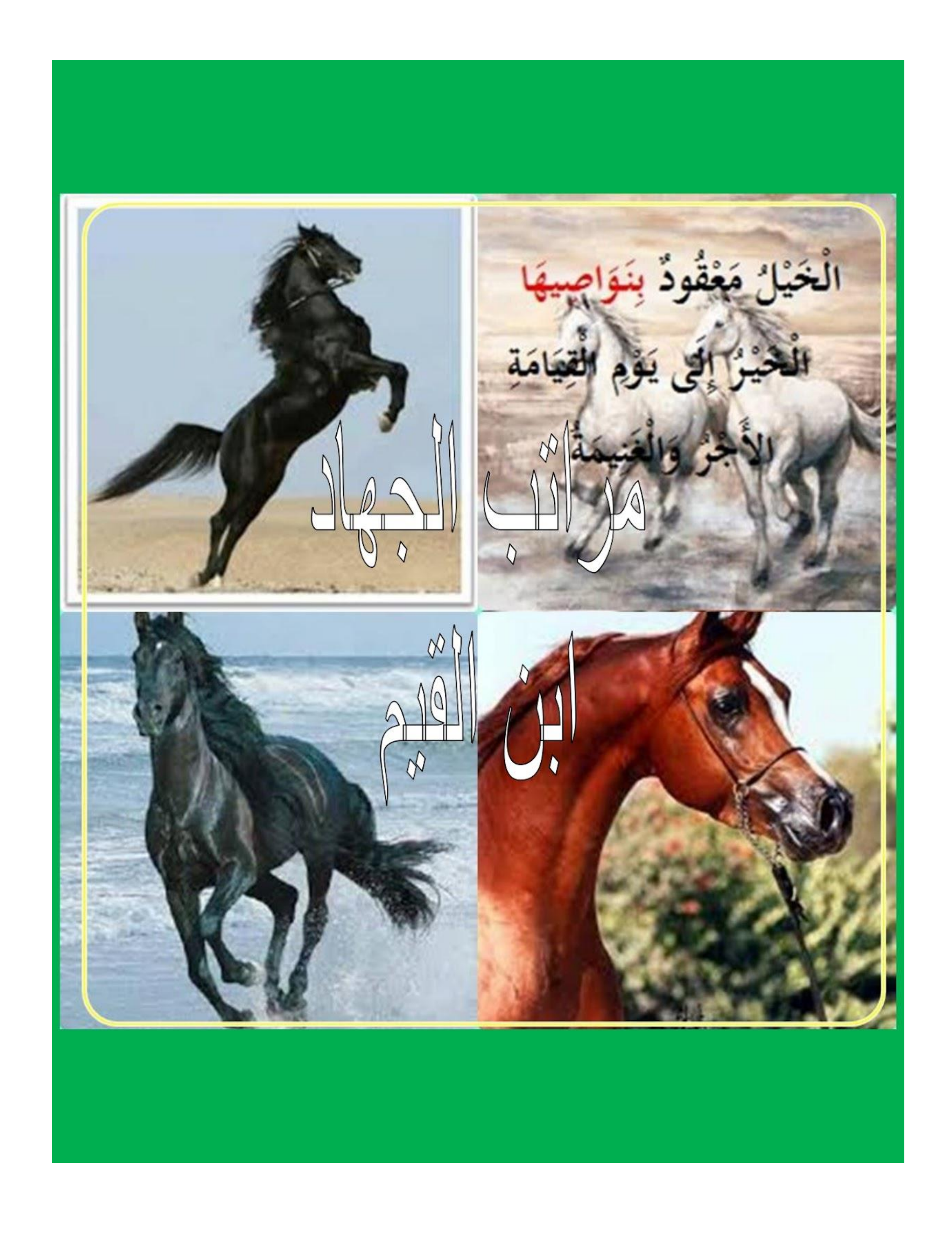
وَلَقَدْ ذَكَرْنَا لَفْظَهُ فِي غَيْرِ هَذَا الْكِتَابِ. وَالْقَوْلُ عَلَى اللهِ بِلَا عِلْمٍ وَالشِّرْكُ مُتَلَازِمَانِ. وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ الْبِدَعُ الْمُضِلَّةُ جَهْلًا بِصِفَاتِ اللهِ وَتَكْذِيبًا بِمَا أَخْبَرَ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ وَأَخْبَرَ بِهِ عَنْهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنَادًا وَجَهْلًا - كَانَتْ مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ، وَإِنْ قَصُرَتْ عَنِ الْكُفْرِ وَكَانَتْ أَحَبَّ إِلَى إِبْلِيسَ مِنْ كِبَارِ الذُّنُوبِ. كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: الْبِدْعَةُ أَحَبُّ إِلَى إِبْلِيسَ مِنَ الْمَعْصِيَةِ: لِأَنَّ الْمَعْصِيَةَ يُتَابُ مِنْهَا وَالْبِدْعَةَ لَا يُتَابُ مِنْهَا.

وَقَالَ إِبْلِيسُ: أَهْلَكْتُ بَنِي آدَمَ بِالذُّنُوبِ وَأَهْلَكُونِي بِالِاسْتِغْفَارِ وَبِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ بَثَثْتُ فِيهِمُ الْأَهْوَاءَ، فَهُمْ يُذْنِبُونَ وَلَا يَتُوبُونَ، لِأَنَّهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمُذْنِبَ إِنَّمَا ضَرَرُهُ عَلَى نَفْسِهِ، وَأَمَّا الْمُبْتَدِعُ فَضَرَرُهُ عَلَى النَّوْعِ، وَفِتْنَةُ الْمُبْتَدِعِ فِي أَصْلِ الدِّينِ، وَفِتْنَةُ الْمُذْنِبِ فِي الشَّهْوَةِ، وَالْمُبْتَدِعُ قَدْ قَعَدَ لِلنَّاسِ عَلَى صِرَاطِ اللهِ الْمُسْتَقِيمِ يَصُدُّهُمْ عَنْهُ، وَالْمُذْنِبُ لَيْسَ كَذَلِكَ، وَالْمُبْتَدِعُ قَادِحٌ فِي أَوْصَافِ الرَّبِّ وَكَمَالِهِ، وَالْمُذْنِبُ لَيْسَ كَذَلِكَ.

وَالْمُبْتَدِعُ يَقْطَعُ عَلَى النَّاسِ طَرِيقَ الْآخِرَةِ، وَالْعَاصِي بَطِيءُ السَّيْرِ بِسَبَبِ ذُنُوبِهِ.

جدول المحتويات


الْخَيْلُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيهَا
الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ
الأَجْرُ وَالْغَنِيمَةُ
مراتب الجهاد
ابن القيم



جمع وتنسيق

جمال شاهين

قال ابن القيم في زاد المعاد :

فِي هَدْيِهِ ﷺ فِي الْجِهَادِ وَالْمَغَازِي وَالسَّرَايَا وَالْبُعُوثِ كَانَ الْجِهَادُ ذِرْوَةَ سَنَامِ الْإِسْلَامِ وَقُبَّتَهُ وَمَنَازِلُ أَهْلِهِ أَعْلَى الْمَنَازِلِ فِي الْجَنَّةِ كَمَا هُمْ الرفْعَةُ فِي الدُّنْيَا فَهُمُ الْأَعْلَوْنَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ كَانَ رَسُولُ اللَّهَ ﷺ فِي الذَّرْوَةِ الْعُلْيَا مِنْهُ وَاسْتَوْلَى عَلَى أَنْوَاعِهِ كُلِّهَا فَجَاهَدَ فِي اللهِّ حَقَّ جِهَادِهِ بِالْقَلْبِ وَالْجِنَانِ وَالدّعْوَةِ وَالْبَيَانِ وَالسَّيْفِ وَالسِّنَانِ وَكَانَتْ سَاعَاتُهُ مَوْقُوفَةٌ عَلَى الْجِهَادِ بِقَلْبِهِ وَلِسَانِهِ وَيَدِهِ . وَلِهَذَا كَانَ أَرْفَعَ الْعَالَمِينَ ذِكْرًا وَأَعْظَمَهُمْ عِنْدَ اللهَ قَدْرًا .

كَانَ الْجِهَادُ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ بِتَبْلِيغِ الْحُجَةِ

وَأَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى بِالْجِهَادِ مِنْ حِينِ بَعْثِهِ وَقَالَ { وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا } [الْفُرْقَانُ : ٥٢] فَهَذِهِ سُورَةٌ مَكِّيَّةٌ أَمَرَ فِيهَا بِجِهَادِ الْكُفَارِ بِالحَجَةِ وَالْبَيَانِ وَتَبْلِيغِ الْقُرْآنِ وَكَذَلِكَ جِهَادُ الْمُنَافِقِينَ إِنَّمَا هُوَ بِتَبْلِيغِ الحَجةِ وَإِلَّا فَهُمْ تَحْتَ قَهْرِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ قَالَ تَعَالَى : { يَا أَيُّهَا النَّبِيِّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ } [التَّوْبَةُ ٧٣] فَجِهَادُ الْمُنَافِقِينَ أَصْعَبُ مِنْ جِهَادِ الْكُفَّارِ وَهُوَ جِهَادُ خَوَاصِ الْأُمَةِ وَوَرَثَةُ الرّسُلِ وَالْقَائِمُونَ بِهِ أَفْرَادُ فِي الْعَالَمِ وَالْمُشَارِكُونَ فِيهِ وَالْمُعَاوِنُونَ عَلَيْهِ وَإِنْ كَانُوا هُمُ الْأَقَلِّينَ عَدَدًا فَهُمْ الْأَعْظَمُونَ عِنْدَ اللهَّ قَدْرًا . وَلَمَا كَانَ مِنْ أَفْضَلِ الْجِهَادِ قَوْلُ الحَقِّ مَعَ شِدّةِ الْمُعَارِضِ مِثْلَ أَنْ تَتَكَلَّمَ بِهِ عِنْدَ مَنْ تَخَافُ سَطْوَتَهُ وَأَذَاهُ كَانَ لِلرَسُلِ – صَلَوَاتُ اللهَ عَلَيْهِمْ وَسَلَامُهُ – مِنْ ذَلِكَ الْحَظَ الْأَوْفَر وَكَانَ لِنَبِيِّنَا – صَلَوَاتُ اللهَ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ – مِنْ ذَلِكَ أَكْمَلُ الْجِهَادِ وَأَتَمَّهُ .

جِهَادُ أَعْدَاءِ اللهِّ فَرْعُ عَلَى جِهَادِ النَّفْسِ

وَمَا كَانَ جِهَادُ أَعْدَاءِ اللهِّ فِي الْخَارِجِ فَرْعًا عَلَى جِهَادِ الْعَبْدِ نَفْسِهِ فِي ذَاتِ قَالَ النَّبِيِّ ﷺ الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللهَّ وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُّ عَنْهُ " كَانَ جِهَادُ النَّفْسِ مُقَدَّمًا عَلَى جِهَادِ الْعَدُوِّ فِي الْخَارِجِ وَأَصْلًا لَهُ فَإِنَّهُ مَا لَمْ يُجَاهِدُ نَفْسَهُ أَوّلًا لِتَفْعَلَ مَا أُمِرت بِهِ وَتَتْرُكَ مَا نُهِيت عَنْهُ وَيُحَارِبُهَا فِي اللهَّ لَمْ يُمْكِنْهُ جِهَادُ عَدُوِّهِ فِي الْخَارِجِ فَكَيْفَ يُمْكِنُهُ جِهَادُ عَدْوِهِ وَالِانْتِصَافُ مِنْهُ وَعَدُوهُ

الَّذِي بَيْنَ جَنْبَيْهِ قَاهِرٌ لَهُ مُتَسَلِّطٌ عَلَيْهِ لَمْ يُجَاهِدْهُ وَلَمْ يُحَارِبْهُ فِي اللهِّ بَلْ لا يُمْكِنُهُ الْخُرُوجُ إِلَى عَدُوِّهِ حَتَّى يُجَاهِدَ نَفْسَهُ عَلَى الْخُرُوجِ .

هُنَاكَ جِهَادٌ ثَالِثٌ هُوَ جِهَادُ الشَّيْطَانِ

فَهَذَانِ عَدُوَانِ قَدْ أَمْتُحِنَ الْعَبْدُ بِجِهَادِهِمَا وَبَيْنَهُمَا عَدُوٌّ ثَالِثٌ لَا يُمْكِنُهُ جِهَادُهُمَا إِلَّا بِجَهَادِهِ وَهُوَ وَاقِفٌ بَيْنَهُمَا يُثَبِّطُ الْعَبْدَ عَنْ جِهَادِهِمَا وَيَخْذُلُهُ وَيَرْجُفُ بِهِ وَلَا يَزَالُ يُخَيِّلُ لَهُ مَا فِي جِهَادِهِمَا مِنْ الْمُشَاقِّ وَتَرْكِ الْحُظُوظِ وَفَوْتِ اللَّذَّاتِ وَالْمُشْتَهَيَاتِ وَلَا يُمْكِنُهُ أَنْ يُجَاهِدَ ذَيْنِكَ الْعَدُوَيْنِ إِلَّا بِجِهَادِهِ فَكَانَ جِهَادُهُ هُوَ الْأَصْلُ لِجِهَادِهِمَا وَهُوَ الشَّيْطَانُ قَالَ تَعَالَى : { إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًا } [فَاطِرٌ ٦] وَالْأَمْرُ بِاتِّخَاذِهِ عَدْوًا تَنْبِيهٌ عَلَى اسْتِفْرَاغِ الْوُسْعِ فِي مُحَارَبَتِهِ وَمُجَاهَدَتِهِ كَأَنَّهُ عَدُوٌّ لَا يَفْتُرُ وَلَا يُقَصِّرُ عَنْ مُحَارَبَةِ الْعَبْدِ عَلَى عَدَدِ الْأَنْفَاسِ

جِهَادُ هَؤُلَاءِ الْأَعْدَاءِ الثَّلَاثَةِ لِيَمْتَحِنَ مَنْ يَتَوَلَّاهُ

فَهَذِهِ ثَلَاثَةُ أَعْدَاءٍ أُمِرَ الْعَبْدُ بِمُحَارَبَتِهَا وَجِهَادِهَا وَقَدْ بُلِيَ بِمُحَارَبَتِهَا فِي هَذِهِ الدَّارِ وَسُلِّطَتْ عَلَيْهِ امْتِحَانًا مِنْ اللهِّ لَهُ وَابْتِلَاءً فَأَعْطَى اللهُ الْعَبْدَ مَدَدًا وَعُدَّةً وَأَعْوَانًا وَسِلَاحًا لِهَذَا الْجِهَادِ وَأَعْطَى أَعْدَاءَهُ مَدَدًا وَعُدَّةً وَأَعْوَانًا وَسِلَاحًا وَبَلَا أَحَدَ الْفَرِيقَيْنِ بِالْآخَرِ وَجَعَلَ بَعْضَهُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً لِيَبْلُوَ أَخْبَارَهُمْ وَيَمْتَحِنَ مَنْ يَتَوَلَّاهُ وَيَتَوَلَّى رُسُلَهُ مِنْ يَتَوَلَّى الشَّيْطَانَ وَحِزْبَهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى : { وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا } [الْفُرْقَانُ : ٢٠] وَقَالَ تَعَالَى { ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللهُّ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ } [مُحَمَّدٌ ٤] وَقَالَ تَعَالَى : {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ } [مُحَمَّدُ٣١] فَأَعْطَى عِبَادَهُ الْأَسْمَاعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْعُقُولَ وَالْقُوَى وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ كُتُبَهُ وَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رُسُلَهُ وَأَمَدَّهُمْ بِمَلَائِكَتِهِ وَقَالَ لَهُمْ { أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا } [الْأَنْفَالُ١٢] وَأَمَرَهُمْ مِنْ أَمْرِهِ بِمَا هُوَ مِنْ أَعْظَمِ الْعَوْنِ لَهُمْ عَلَى حَرْبِ عَدُوِّهِمْ وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ امْتَثَلُوا مَا أَمَرَهُمْ بِهِ لَمْ يَزَالُوا مَنْصُورِينَ عَلَى عَدُوِّهِ وَعَدُوِّهِمْ وَأَنَّهُ إِنْ سَلَّطَهُ عَلَيْهِمْ فَلِتَرْكِهِمْ بَعْضَ مَا أُمِرُوا بِهِ وَلِعَصِيَتِهِمْ لَهُ ثُمَّ لَمْ يُؤَيِّسْهُمْ وَلَمْ يُقَنِّطْهُمْ بَلْ أَمَرَهُمْ أَنْ يَسْتَقْبِلُوا أَمْرَهُمْ وَيُدَاوُوا جِرَاحَهُمْ وَيَعُودُوا إِلَى مُنَاهَضَةِ عَدُوِّهِمْ فَيَنْصُرُهُمْ عَلَيْهِ

وَيُظْفِرُهُمْ بِهِمْ فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ مَعَ الْمُتَّقِينَ مِنْهُمْ وَمَعَ الْمُحْسِنِينَ وَمَعَ الصّابِرِينَ وَمَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَنَّهُ يُدَافِعُ عَنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ مَا لَا يُدَافِعُونَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ بَلْ بِدِفَاعِهِ عَنْهُمْ انْتَصَرُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ وَلَوْلَا دِفَاعُهُ عَنْهُمْ لَتَخَطَّفَهُمْ عَدُوّهُمْ وَاجْتَاحَهُمْ . وَهَذِهِ الْمُدَافَعَةُ عَنْهُمْ بِحَسْبِ إِيمَانِهِمْ وَعَلَى قَدْرِهِ فَإِنْ قَوِيَ الْإِيمَانُ قَوِيَتْ الْمُدَافَعَةُ فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدُ اللهُ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ

مَعْنَى وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ

وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُجَاهِدُوا فِيهِ حَقَّ جِهَادِهِ كَمَا أَمَرَهُمْ أَنْ يَتَّقُوهُ حَقَّ تُقَاتِهِ وَكَمَا أَنْ حَقَّ تُقَاتِهِ أَنْ يُطَاعَ فَلَا يُعْصَى وَيُذْكَرَ فَلَا يُنْسَى وَيُشْكَرَ فَلَا يُكْفَرُ فَحَقَّ جِهَادِهِ أَنْ يُجَاهِدَ الْعَبْدُ نَفْسَهُ لِيُسْلِمَ قَلْبَهُ وَلِسَانَهُ وَجَوَارِحَهُ اللهُ فَيَكُونُ كُلَّهُ اللهَّ وَبِاللهِّ لَا لِنَفْسِهِ وَلَا بِنَفْسِهِ وَيُجَاهِدُ شَيْطَانَهُ بِتَكْذِيبِ وَعْدِهِ وَمَعْصِيَةِ أَمْرِهِ وَارْتِكَابِ نَبْيِهِ فَإِنَّهُ يَعِدُ الْأَمَانِيِّ وَيُمَنِّي الْغُرُورَ وَيَعِدُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَيَنْهَى عَنْ التَّقَى وَالْهُدَى وَالْعِفَّةِ وَالصَّبْرِ الْإِيمَانِ كُلَهَا فَجَاهِدُهُ بِتَكْذِيبِ وَعْدِهِ وَمَعْصِيَةِ أَمْرِهِ فَيَنْشَأُ لَهُ مِنْ هَذَيْنِ الْجِهَادَيْنِ قُوَّةً وَسُلْطَانٌ وَعْدَةٌ يُجَاهِدُ بِهَا أَعْدَاءَ اللهَّ فِي الْخَارِجِ بِقَلْبِهِ وَلِسَانِهِ وَيَدِهِ وَمَالِهِ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهَّ هِيَ الْعُلْيَا . وَاخْتَلَفَتْ عِبَارَاتُ السَّلَفِ فِي حَقِّ الْجِهَادِ فَقَالَ ابْنُ عَبّاسٍ : هُوَ اسْتِفْرَاغُ الطَّاقَةِ فِيهِ وَأَلَا تَخَافَ فِي اللهِّ لَوْمَةَ لَائِمٍ . وَقَالَ مُقَاتِلٌ : اعْمَلُوا اللهَّ حَقَّ عَمَلِهِ وَاعْبُدُوهُ حَقَّ عِبَادَتِهِ وَقَالَ عَبْدُ اللهَّ بْنُ الْمُبَارَكِ : هُوَ مُجَاهَدَةُ النَّفْسِ وَالْهَوَى .

وَلَمْ يُصِبْ مَنْ قَالَ إِنَّ الْآيَتَيْنِ مَنْسُوخَتَانِ لِظَنِّهِ أَنهُمَا تَضَمَنَتَا الْأَمْرَ بِمَا لَا يُطَاقُ وَحَقَّ تُقَاتِهِ وَحَقَّ جِهَادِهِ هُوَ مَا يُطِيقُهُ كُلَّ عَبْدٍ فِي نَفْسِهِ وَذَلِكَ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ أَحْوَالِ الْمُكَلَّفِينَ فِي الْقُدْرَةِ وَالْعَجْزِ وَالْعِلْمِ وَالْجَهْلِ . فَحَقِّ التَّقْوَى وَحَقَّ الْجِهَادِ بِالنَّسْبَةِ إِلَى الْقَادِرِ الْمُتَمَكِّنِ الْعَالِمِ شَيْءٌ وَبِالنِّسْبَةِ إِلَى الْعَاجِزِ الْجَاهِلِ الضَّعِيفِ شَيْءٌ وَتَأَمَلْ كَيْفَ عَقَّبَ الْأَمْرَ بِذَلِكَ بِقَوْلِهِ { هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ } [الحج ٧٨] وَالْحَرَجُ الضّيقُ بَلْ جَعَلَهُ وَاسِعًا يَسَعُ كُلَّ أَحَدٍ كَمَا جَعَلَ رِزْقَهُ يَسَعُ كُلَّ حَيٍّ وَكَلَّفَ الْعَبْدَ بِمَا يَسَعُهُ الْعَبْدُ وَرَزَقَ الْعَبْدَ مَا يَسَعُ الْعَبْدَ فَهُوَ يَسَعُ تَكْلِيفَهُ وَيَسَعُهُ رِزْقُهُ وَمَا جَعَلَ عَلَى عَبْدِهِ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ بِوَجْهِ مَا قَالَ النَّبِيِّ ﷺ بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ أَيْ بِالْمِلَّةِ فَهِيَ حَنِيفِيَّةٌ فِي التَّوْحِيدِ سَمْحَةٌ فِي الْعَمَلِ . وَقَدْ وَسَعَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى

عِبَادِهِ غَايَةَ التَّوْسعَةِ فِي دِينِهِ وَرِزْقِهِ وَعَفْوِهِ وَمَغْفِرَتِهِ وَبَسَطَ عَلَيْهِمْ التَّوْبَةَ مَا دَامَتْ الرّوحُ فِي الْجَسَدِ وَفَتَحَ لَهُمْ بَابًا لَهَا لَا يُغْلِقُهُ عَنْهُمْ إلَى أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا وَجَعَلَ لِكُلِّ سَيِّئَةٍ كَفَّارَةً تُكَفِّرُهَا مِنْ تَوْبَةٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ حَسَنَةٍ مَاحِيَةٍ أَوْ مُصِيبَةٍ مُكَفِّرَةٍ وَجَعَلَ بِكُلِّ مَا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ عِوَضًا مِنْ الْحَلَالِ أَنْفَعَ لَهُمْ مِنْهُ وَأَطْيَبَ وَأَلَد فَيَقُومُ مَقَامَهُ لِيَسْتَغْنِيَ الْعَبْدُ .

وَجَعَلَ لِكُلِّ عُسْرٍ يَمْتَحِنْهُمْ بِهِ يُسْرًا قَبْلَهُ وَيُسْرًا بَعْدَهُ " فَلَنْ يَغْلِبَ عُسْرَ يُسْرَيْنِ فَإِذَا كَانَ هَذَا شَأْنُهُ سُبْحَانَهُ مَعَ عِبَادِهِ فَكَيْفَ يُكَلِّفُهُمْ مَا لَا يَسَعُهُمْ فَضْلًا عَمَا لَا يُطِيقُونَهُ وَلَا يَقْدُرُونَ عَلَيْهِ .

مَرَاتِبِ الْجِهَادِ

إذَا عُرِفَ هَذَا فَالْجِهَادُ أَرْبَعُ مَرَاتِبَ جِهَادُ النَّفْسِ وَجِهَادُ الشَّيْطَانِ وَجِهَادُ الْكُفَّارِ وَجِهَادُ الْمُنَافِقِينَ

مَرَاتِبُ جِهَادِ النَّفْسِ فَجِهَادُ النَّفْسِ أَرْبَعُ مَرَاتِبَ:

إحْدَاهَا : أَنْ يُجَاهِدَهَا عَلَى تَعَلّمِ الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ الَّذِي لَا فَلَاحَ لَهَا وَلَا سَعَادَةَ فِي مَعَاشِهَا وَمَعَادِهَا إلَّا بِهِ وَمَتَى فَاءَهَا عَلِمَهُ شَقِيَتْ فِي الدّارَيْنِ . الثَّانِيَةُ أَنْ يُجَاهِدَهَا عَلَى الْعَمَلِ بِهِ بَعْدَ عِلْمِهِ وَإِلَّا فَمُجَرَّدُ الْعِلْمِ بِلَا عَمَلٍ إنْ لَمْ يَضُرَّهَا لَمْ يَنْفَعْهَا . الثَّالِثَةُ أَنْ يُجَاهِدَهَا عَلَى الدّعْوَةِ إلَيْهِ وَتَعْلِيمِهِ مَنْ لَا يَعْلَمُهُ وَإِلّا كَانَ مِنْ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللهُّ مِنْ الْهُدَى وَالْبَيِّنَاتِ وَلَا يَنْفَعُهُ عِلْمُهُ وَلَا يُنْجِيهِ مِنْ عَذَابِ اللهُّ . الرَّابِعَةُ أَنْ يُجَاهِدَهَا عَلَى الصَّبْرِ عَلَى مَشَاقِ الدّعْوَةِ إلَى اللهُّ وَأَذَى الْخَلْقِ وَيَتَحَمّلُ ذَلِكَ كُلَّهُ للهُّ . فَإِذَا اسْتَكْمَلَ هَذِهِ الْمَرَاتِبَ الْأَرْبَعَ صَارَ مِنْ الرَّبَّانِيِّينَ فَإِنَّ السَّلَفَ مُجْمِعُونَ عَلَى أَنْ الْعَالِمَ لَا يَسْتَحِقّ أَنْ يُسَمَّى رَبَّانِيًا حَتَّى يَعْرِفَ الْحَقَّ وَيَعْمَلَ بِهِ وَيُعَلِّمَهُ فَمَنْ عَلِمَ وَعَمِلَ وَعَلَّمَ فَذَاكَ يُدْعَى عَظِيمًا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ .

مَرَاتِبُ جِهَادِ الشَّيْطَانِ :

جِهَادِ الشَّيْطَانِ فَمَرْتَبَتَانِ إحْدَاهُمَا : جِهَادُهُ عَلَى دَفْعِ مَا يُلْقِي إلَى الْعَبْدِ مِنْ الشّبُهَاتِ وَالشّكُوكِ الْقَادِحَةِ فِي الْإِيمَانِ . الثَّانِيَةُ جِهَادُهُ عَلَى دَفْعِ مَا يُلْقِي إلَيْهِ مِنْ الْإِرَادَاتِ الْفَاسِدَةِ وَالشّهَوَاتِ فَالْجِهَادُ الْأَوَّلُ يَكُونُ بَعْدَهُ الْيَقِينُ وَالثّانِي يَكُونُ بَعْدَهُ الصّبْرُ . قَالَ تَعَالَى : { وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ } [السجدة ٢٤]

فَأَخْبَرَ أَنْ إِمَامَةَ الدِّينِ إِنَّمَا تُنَالُ بِالصَّبْرِ وَالْيَقِينِ فَالصَّبْرُ يَدْفَعُ الشَّهَوَاتِ وَالْإِرَادَاتِ الْفَاسِدَةَ وَالْيَقِينُ يَدْفَعُ الشُّكُوكَ وَالشُّبُهَاتِ .

مَرَاتِبُ جِهَادِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ :

وَأَمَّا جِهَادُ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ فَأَرْبَعُ مَرَاتِبَ بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالْمَالِ وَالنَّفْسِ وَجِهَادُ الْكُفَّارِ أَخْصَ بِالْيَدِ وَجِهَادُ الْمُنَافِقِينَ أَخْصّ بِاللِّسَانِ .

جِهَادُ أَرْبَابِ الظُّلْمِ وَالْبِدَعِ وَالْمُنْكَرَاتِ :

وَأَمَا جِهَادُ أَرْبَابِ الظُّلْمِ وَالْبِدَعِ وَالْمُنْكَرَاتِ فَثَلَاثُ مَرَاتِبَ الْأُولَى : بِالْيَدِ إِذَا قَدَرَ فَإِنْ عَجَزَ انْتَقَلَ إِلَى اللّسَانِ فَإِنْ عَجَزَ جَاهَدَ بِقَلْبِهِ فَهَذِهِ ثَلَاثَةَ عَشَرَ مُرَتِّبَةٌ مِنْ الْجِهَادِ وَ مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ بِالْغَزْوِ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ النِّفَاقِ

شَرْطُ الْجِهَادِ

وَلَا يَتِمَ الْجِهَادُ إِلَّا بِالهِجْرَةِ وَلَا الْهِجْرَةُ وَالْجِهَادُ إِلَّا بِالْإِيمَانِ وَالرَاجُونَ رَحْمَةَ اللهَّ هُمْ الَّذِينَ قَامُوا بِهَذِهِ الثَّلَاثَةِ . قَالَ تَعَالَى : { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهَّ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهَّ وَاللهَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [الْبَقَرَةُ ٢١٨] وَكَمَا أَنْ الْإِيمَانَ فَرْضٌ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ فَفَرْضٌ عَلَيْهِ هِجْرَتَانِ فِي كُلِّ وَقْتٍ عَزَّ وَجَلَّ بِالتَّوْحِيدِ وَالْإِخْلَاصِ وَالْإِنَابَةِ وَالتَّوَكُّلِ وَالْخَوْفِ وَالرِّجَاءِ وَالْمَحَبَّةِ وَالتَّوْبَةِ وَهِجْرَةٌ إِلَى رَسُولِهِ بِالْمُتَابَعَةِ وَالِانْقِيَادِ لِأَمْرِهِ وَالتَّصْدِيقِ بِخَبَرِهِ وَتَقْدِيمِ أَمْرِهِ وَخَبَرِهِ عَلَى أَمْرِ غَيْرِهِ وَخَبَرِهِ [فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهَ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهَّ وَرَسُولِهِ وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَتَزَوْجُهَا فَهِجْرَتْهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ] وَفَرَضَ عَلَيْهِ جِهَادَ نَفْسِهِ فِي ذَاتِ اللهَّ وَجِهَادَ شَيْطَانِهِ فَهَذَا كُلَّهُ فَرْضُ عَيْنٍ لَا يَنُوبُ فِيهِ أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ . وَأَمَا جِهَادُ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ فَقَدْ يُكْتَفَى فِيهِ بِبَعْضِ الْأُمَّةِ إِذَا حَصَلَ مِنْهُمْ مَقْصُودُ الْجِهَادِ .

أَكْمَلُ الخَلقِ مَنْ كَمَلَ مَرَاتِبَ الجِهَادِ وَأَكْمَلُهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ

وَأَكْمَلُ الْخَلْقِ عِنْدَ الله مَنْ كَمَلَ مَرَاتِبَ الْجِهَادِ كُلَّهَا وَالْخَلْقُ مُتَفَاوِتُونَ فِي مَنَازِهِمْ عِنْدَ الله تَفَاوُتُهُمْ فِي مَرَاتِبِ الْجِهَادِ وَهَذَا كَانَ أَكْمَلُ الْخَلْقِ وَأَكْرَمُهُمْ عَلَى اللهَّ خَاتِمَ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ فَإِنَّهُ كَمَلَ مَرَاتِبَ

الْجِهَادِ وَجَاهَدَ فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ وَشَرَعَ فِي الْجِهَادِ مِنْ حِينَ بُعِثَ إِلَى أَنْ تَوَفَّاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فَإِنَّهُ لَمَا نَزَلَ عَلَيْهِ { يَا أَيُّهَا الْمُدَثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ } [المدثر ١ – ٤] شَمَرَ عَنْ سَاقِ الدَعْوَةِ وَقَامَ فِي ذَاتِ الله أَتَمْ قِيَامٍ وَدَعَا إِلَى اللهِ لَيْلًا وَنَهَارًا وَسِرًا وَجِهَارًا وَلَا نَزَلَ عَلَيْهِ { فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ } [الْحِجْرُ : ٩٤] فَصَدَعَ بِأَمْرِ اللهِ لَا تَأْخُذُهُ فِيهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ فَدَعَا إِلَى اللهِ الصَّغِيرَ وَالْكَبِيرَ وَالْحُرَ وَالْعَبْدَ وَالذَّكَرَ وَالْأُنْثَى وَالْأَحْمَرَ وَالْأَسْوَدَ وَالْجِنَّ وَالْإِنْسَ . وَلَمَا صَدَعَ بِأَمْرِ الله وَصَرَحَ لِقَوْمِهِ بِالدّعْوَةِ وَنَادَاهُمْ بِسَبِّ آلِهَتِهِمْ وَعَيْبَ دِينَهُمْ ، وَنَالُوهُ وَنَالُوهُمْ بِأَنْوَاعِ الْأَذَى وَهَذِهِ سُنَّةُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي خَلْقِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : { مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ } [فُصِّلَتْ ٤٣] وَقَالَ { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِي عَدُوا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنَ } [الْأَنْعَامُ ١١٢] وَقَالَ { كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ } [الذارِيَاتُ ٥٢ – ٥٣] فَعَزَى سُبْحَانَهُ نَبِيَّهُ بِذَلِكَ وَأَنْ لَهُ أُسْوَةٌ بِمَنْ تَقَدَّمَهُ مِنْ الْمُرْسَلِينَ وَعَنَّى أَتْبَاعَهُ بِقَوْلِهِ { أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ الله أَلَا إِنْ نَصْرَ اللهَ قَرِيبٌ } [الْبَقَرَةُ ٢١٤] وَقَوْلُهُ { الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللهَ فَإِنْ أَجَلَ اللهَ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللهَ لَغَنِيّ عَنِ الْعَالَمِينَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنْ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَي مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَا بِاللهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهَ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ العالمِينَ } [الْعَنْكَبُوتُ ١ – ١١]

فَلْيَتَأَمَلْ الْعَبْدُ سِيَاقَ هَذِهِ الْآيَاتِ وَمَا تَضَمَنَتْهُ مِنْ الْعِبَرِ وَكُنُوزِ الْحِكَمِ فَإِنَّ النَّاسَ إذَا أُرْسِلَ إلَيْهِمُ الرَسُلُ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إمَا أَنْ يَقُولَ أَحَدُهُمْ آمَنَّا وَإِمَا أَلَا يَقُولَ ذَلِكَ بَلْ يَسْتَمِرُّ عَلَى السَّيِّئَاتِ وَالْكُفْرِ فَمَنْ قَالَ آمَنَا امْتَحَنَهُ رَبَّهُ وَابْتَلَاهُ وَفَتَنَهُ وَالْفِتْنَةُ الابْتِلَاءُ وَالِاخْتِبَارُ لِيَتَبَيَّنَ الصَّادِقُ مِنْ الْكَاذِبِ وَمَنْ لَمْ يَقُلْ آمَنَّا فَلَا يَحْسِبْ أَنَّهُ يُعْجِزُ اللهَّ وَيَفُوتُهُ وَيَسْبِقُهُ فَإِنَّهُ إنَّمَا يَطْوِي الْمَرَاحِلَ فِي يَدَيْهِ . وَكَيْفَ يَفِرَ الْمَرْءُ عَنْهُ بِذَنْبِهِ إذَا كَانَ تُطْوَى فِي يَدَيْهِ الْمَرَاحِلُ فَمَنْ آمَنَ بِالرَّسُلِ وَأَطَاعَهُمْ عَادَاهُ أَعْدَاؤُهُمْ وَآذَوْهُ فَابْتُلِيَ بِمَا يُؤْمِهُ وَإِنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِمْ وَلَمْ يُطِعْهُمْ مُوقِبَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَحَصَلَ لَهُ مَا يُؤْلِمُهُ وَكَانَ هَذَا الْمُؤْمِ لَهُ أَعْظَمَ أَلَا وَأَدومَ مِنْ أَلَمَ اتِّبَاعِهِمْ فَلَا بُدَّ مِنْ حُصُولِ الأَلَمِ لِكُلِّ نَفْسٍ آمَنَتْ أَوْ رَغِبَتْ عَنْ الْإِيمَانِ لَكِنَّ الْمُؤْمِنَ يَحْصُلُ لَهُ الْأَلَمَ فِي الدُّنْيَا ابْتِدَاءً ثُمَّ تَكُونُ لَهُ الْعَاقِبَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَالْمُعْرِضُ عَنْ الْإِيمَانِ تَحْصُلُ لَهُ اللَّذَةُ ابْتِدَاء ثُمَّ يَصِيرُ إلَى الْأَلَمِ الدّائِمِ .

وَسُئِلَ الشَّافِعِي رَحِمَهُ اللهُ أَيَمَا أَفْضَلُ لِلرّجُلِ أَنْ يُمَكَّنَ أَوْ يُبْتَلَى ؟ فَقَالَ لَا يُمَكَّنُ حَتَّى يُبْتَلَى وَاللهَّ تَعَالَى ابْتَلَى أُولِي الْعَزْمِ مِنْ الرَسُلِ فَلَمَا صَبَرُوا مَكَنَهُمْ فَلَا يَظُنَ أَحَدٌ أَنه يَخْلُصُ مِنْ الألم الْبَتَّةَ وَإِنَّمَا يَتَفَاوَتُ أَهْلُ الْآلَام فِي الْعُقُولِ فَأَعْقَلُهُمْ مَنْ بَاعَ أَلَمًا مُسْتَمِرًا عَظِيمًا بِأَلَمٍ مُنْقَطِع يَسِيرٍ وَأَشْقَاهُمْ مَنْ بَاعَ الْأَلَمَ الْمُنْقَطِعَ الْيَسِيرَ بِالْأَلَمِ الْعَظِيمِ الْمُسْتَمِرَ . فَإِنْ قِيلَ كَيْفَ يَخْتَارُ الْعَاقِلُ هَذَا ؟ قِيلَ الْحَامِلُ لَهُ عَلَى هَذَا النَّقْدُ وَالنَّسِيئَةُ . وَالنَّفْسُ مُوَكَّلَةٌ بِحُبِّ الْعَاجِلِ .

مَنْ أَرْضَى النَّاسَ بِسَخَطِ اللهَّ لَمْ يُغْنُوا عَنْهُ مِنَ اللهَّ شَيْئًا

{ كَلَّا بَلْ تُحِبّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ } [الْقِيَامَةُ ٢٠] { إنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا } [الدَّهْرُ ٢٧] وَهَذَا يَحْصُلُ لِكُلِّ أَحَدٍ فَإِنْ الْإِنْسَانَ مَدَنِي بِالطَّبْعِ لَا بُدَّ لَهُ أَنْ يَعِيشَ مَعَ النَّاسِ وَالنَّاسُ هُمْ إرَادَاتٌ وَتَصَورَاتٌ فَيَطْلُبُونَ مِنْهُ أَنْ يُوَافِقَهُمْ عَلَيْهَا فَإِنْ لَمْ يُوَافِقُهُمْ آذَوْهُ وَعَذَّبُوهُ وَإِنْ حَصَلَ لَهُ الْأَذَى وَالْعَذَابُ تَارَةً مِنْهُمْ وَتَارَةً مِنْ غَيْرِهِم كَمَنْ عِنْدَهُ دِينُ وَتُقَى حَلَّ بَيْنَ قَوْمٍ فُجَارٍ ظَلَمَةٍ وَلَا يَتَمَكَّنُونَ مِنْ فُجُورِهِمْ وَظُلْمِهِمْ إلَّا بِمُوَافَقَتِهِ هُمْ أَوْ سُكُوتِهِ عَنْهُمْ فَإِنْ وَافَقَهُمْ أَوْ سَكَتَ عَنْهُمْ سَلِمَ مِنْ شَرِهِمْ فِي الِابْتِدَاءِ ثُمَّ يَتَسَلَّطُونَ عَلَيْهِ بِالْإِهَانَةِ وَالْأَذَى

أَضْعَافَ مَا كَانَ يَخَافُهُ ابْتِدَاء لَوْ أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ وَخَالَفَهُمْ وَإِنْ سَلِمَ مِنْهُمْ فَلَا بد أَنْ يُهَانَ وَيُعَاقَبَ عَلَى يَدِ غَيْرِهِمْ فَالْحَزْمُ كُلِّ الحَزْمِ فِي الْأَخْذِ بِمَا قَالَتْ عَائِشَةُ أُمّ الْمُؤْمِنِينَ لمُعَاوِيَةَ : [مَنْ أَرْضَى اللهَّ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللهُّ مُؤْنَةَ النَّاسِ وَمَنْ أَرْضَى النَّاسَ بِسَخَطِ اللهَّ لَمْ يُغْنُوا عَنْهُ مِنْ اللهَّ شَيْئًا] وَمَنْ تَأَمَلَ أَحْوَالَ الْعَالَمِ رَأَى هَذَا كَثِيرًا فِيمَنْ يُعِينُ الرُّؤَسَاءَ عَلَى أَغْرَاضِهِمُ الْفَاسِدَةِ وَفِيمَنْ يُعِينُ أَهْلَ الْبِدَعِ عَلَى بِدَعِهِمْ هَرَبًا مِنْ عُقُوبَتِهِمْ فَمَنْ هَدَاهُ اللهُّ وَأَلْهَمَهُ رُشْدَهُ وَوَقَاهُ شَرَ نَفْسِهِ امْتَنَعَ مِنْ الْمُوَافَقَةِ عَلَى فِعْلِ الْمُحَرّم وَصَبَرَ عَلَى عِدْوَانِهِمْ ثُمّ تَكُونُ لَهُ الْعَاقِبَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ كَمَا كَانَتْ لِلرّسُلِ وَأَتْبَاعِهِمْ كَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصارِ وَمَنْ أَبْتِلِيَ مِنْ الْعُلَمَاءِ وَالْعِبادِ وَصَاحِي الْوُلَاةِ وَالتَّجارِ وَغَيْرِهِمْ

تَعْزِيَةُ اللهَّ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا قَصِيرَةٌ

وَلَمَا كَانَ الْأَلَمُ لَا مَحِيصَ مِنْهُ الْبَتّةَ عَزَى اللهُ – سُبْحَانَهُ – مَنْ اخْتَارَ الْأَلَمَ الْيَسِيرَ الْمُنْقَطِعَ عَلَى الْأَلَمِ الْعَظِيمِ الْمُسْتَمِرِ بِقَوْلِهِ { مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللهَّ فَإِنْ أَجَلَ اللهَّ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } [الْعَنْكَبُوتُ ٥] فَضَرَبَ لِمدّةِ هَذَا الْأَلَمَ أَجَلًا لَا بُدّ أَنْ يَأْتِيَ وَهُوَ يَوْمُ لِقَائِهِ فَيَلْتَذْ الْعَبْدُ أَعْظَمَ اللّذَّةِ بِمَا تَحَمَلَ أَجْلِهِ وَفِي مَرْضَاتِهِ وَتَكُونُ لَذّتُهُ وَسُرُورُهُ وَابْتِهَاجُهُ بِقَدْرِ مَا تَحَمَلَ مِنْ الْأَلَمِ فِي اللهَّ وَاللهِ وَأَكْدَ هَذَا الْعَزَاءَ وَالتّسْلِيَةَ بِرَجَاءِ لِقَائِهِ لِيَحْمِلَ الْعَبْدُ اشْتِيَاقَهُ إلَى لِقَاءِ رَبّهِ وَوَلِيهِ عَلَى تَحَمَلِ مَشَقّةِ الْأَلَمِ الْعَاجِلِ بَلْ رُبّمَا غَيْبَهُ الشّوْقُ إلَى لِقَائِهِ عَنْ شُهُودِ الْأَلَمِ وَالْإِحْسَاسِ بِهِ وَلِهَذَا سَأَلَ النّبِيّ ﷺ رَبّهُ الشّوْقَ إلَى لِقَائِهِ فَقَالَ فِي الدّعَاءِ الّذِي رَوَاهُ أَحْمَدُ وَابْنُ حِبَانَ :[اللّهُمّ إنّي أَسْأَلُكَ بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخُلْقِ أَحْيِنِي إذَا كَانَتْ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي وَتَوَفّنِي إذَا كَانَتْ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي وَأَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشّهَادَةِ وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الْحَقّ فِي الْغَضَبِ وَالرّضَى وَأَسْأَلُكَ الْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى وَأَسْأَلُكَ نَعِيمًا لَا يَنْفَدُ وَأَسْأَلُكَ قُرّةَ عَيْنٍ لَا تَنْقَطِعُ وَأَسْأَلُكَ الرّضَى بَعْدَ الْقَضَاءِ وَأَسْأَلُكَ بَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَأَسْأَلُكَ لذة النظر إلَى وَجْهك وَأَسْأَلُكَ الشّوْقَ إلَى لِقَائِكَ فِي غَيْرِ ضَرَاءَ مُضِرَةٍ وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ اللّهُمّ زَيّنّا بِزِينَةِ الْإِيمَانِ وَاجْعَلْنَا هُدَاةٌ مُهْتَدِينَ] فَالشّوْقُ يَحْمِلُ الْمُشْتَاقَ عَلَى الْجِدْ فِي السّيْرِ إلَى مَحْبُوبِهِ وَيُقَرّبُ عَلَيْهِ الطّرِيقَ وَيَطْوِي لَهُ الْبَعِيدَ وَيُهَوّنُ عَلَيْهِ الْآلَامَ وَالْمَشَاقَ وَهُوَ مِنْ أَعْظَمَ نِعْمَةٍ أَنْعَمَ اللهُّ بِهَا عَلَى عَبْدِهِ وَلَكِنْ هَذِهِ النّعْمَةِ أَقْوَالُ وَأَعْمَالُ هُمَا السّبَبُ

الَّذِي تُنَالُ بِهِ وَاللهُ سُبْحَانَهُ سَمِيعٌ لِتِلْكَ الْأَقْوَالِ عَلِيمٌ بِتِلْكَ الْأَفْعَالِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِمَنْ يَصْلُحُ هَذِهِ النِّعْمَةِ وَيَشْكُرُهَا وَيَعْرِفُ قَدْرَهَا وَيُحِبّ الْمُنْعِمَ عَلَيْهِ قَالَ تَعَالَى : { وَكَذَلِكَ فَتَنا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَ اللهُّ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللهُّ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ } [الْأَنْعَامُ ٥٣] فَإِذَا فَاتَتْ الْعَبْدَ نَعْمَةٌ مِنْ نِعَمِ رَبِّهِ فَلْيَقْرَأْ عَلَى نَفْسِهِ { أَلَيْسَ اللهُّ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ } { مَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ } عَزَّاهُمْ تَعَالَى بِعَزَاءٍ آخَرَ وَهُوَ أَنْ جِهَادَهُمْ فِيهِ إِنَّمَا هُوَ لِأَنْفُسِهِمْ وَثَمَرَتُهُ عَائِدَةٌ عَلَيْهِمْ وَأَنَّهُ غَنِي عَنْ الْعَالَمِينَ وَمَصْلَحَةُ هَذَا الْجِهَادِ تَرْجِعُ إِلَيْهِمْ لَا إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ يُدْخِلُهُمْ بِجِهَادِهِمْ وَإِيمَانِهِمْ فِي زُمْرَةِ الصَّالِحِينَ .

مَعْنَى فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِّ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِّ

ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ حَالِ الدَّاخِلِ فِي الْإِيمَانِ بِلَا بَصِيرَةٍ وَأَنَّهُ إذَا أُوذِيَ فِي اللهَّ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ لَهُ كَعَذَابِ اللهَّ وَهِيَ أَذَاهُمْ لَهُ وَنَيْلُهُمْ إيَّاهُ بِالْمَكْرُوهِ وَالْأَلَمِ الَّذِي لَا بُدَ أَنْ يَنَالَهُ الرَّسُلُ وَأَتْبَاعُهُمْ مِمَنْ خَالَفَهُمْ جَعَلَ ذَلِكَ فِي فِرَارِهِ مِنْهُمْ وَتَرْكِهِ السَّبَبَ الَّذِي نَالَهُ كَعَذَابِ اللهُّ الَّذِي فَرّ مِنْهُ الْمُؤْمِنُونَ بِالْإِيمَانِ فَالْمُؤْمِنُونَ لِكَمَالِ بَصِيرَتِهِمْ فَرُوا مِنْ أَلَمِ عَذَابِ الله إلَى الْإِيمَانِ وَتَحَمَلُوا مَا فِيهِ مِنْ الْأَلَمِ الزَّائِلِ الْمُفَارِقِ عَنْ قَرِيبٍ وَهَذَا لِضَعْفِ بَصِيرَتِهِ فَرّ مِنْ أَلَمَ عَذَابِ أَعْدَاءِ الرّسُلِ إلَى مُوَافَقَتِهِمْ وَمُتَابَعَتِهِمْ فَفَرَّ مِنْ أَلَمَ عَذَابِهِمْ إلَى أَلَمِ عَذَابِ اللهَّ فَجَعَلَ أَلَمَ فِتْنَةِ النَّاسِ فِي الْفِرَارِ مِنْهُ بِمَنْزِلَةِ أَلَمِ عَذَابِ اللهَّ وَغُبِنَ كُلَّ الْغَبْنِ إذْ اسْتَجَارَ مِنْ الرّمْضَاءِ بِالنَّارِ وَفَرّ مِنْ أَلَمَ سَاعَةٍ إلَى أَلَمَ الْأَبَدِ وَإِذَا نَصَرَ اللهُّ جُنْدَهُ وَأَوْلِيَاءَهُ قَالَ إنِّي كُنْتُ مَعَكُمْ وَاللهُّ عَلِيمٌ بِمَا انْطَوَى عَلَيْهِ صَدْرُهُ مِنْ النِّفَاقِ . وَالْمَقْصُودُ أَنّ اللهَ سُبْحَانَهُ اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَمْتَحِنَ النَّفُوسَ وَيَبْتَلِيَهَا فَيُظْهِرُ بِالِامْتِحَانِ طَيِّبَهَا مِنْ خَبِيثَهَا وَمَنْ يَصْلُحُ لِمَوَالَاتِهِ وَكَرَامَاتِهِ وَمَنْ لَا يَصْلُحُ وَلْيُمَحْص النَّفُوسَ الَّتِي تَصْلُحُ لَهُ وَيُخَلِّصُهَا بِكِيرِ الِامْتِحَانِ كَالذَّهَبِ الَّذِي لَا يَخْلُصُ وَلَا يَصْفُو مِنْ غِشَهِ إلَّا بِالِامْتِحَانِ إذْ النَّفْسُ فِي الْأَصْلِ جَاهِلَةٌ ظَالِمَةٌ وَقَدْ حَصَلَ لَهَا بِالْجَهْلِ وَالظُّلْمِ مِنْ الْخُبْثِ مَا يَحْتَاجُ خُرُوجُهُ إلَى السَّبْكِ وَالتَّصْفِيَةِ فَإِنْ خَرَجَ فِي هَذِهِ الدّارِ وَإِلَّا فَفِي كِيرِ جَهَنَّمَ فَإِذَا هُذّبَ الْعَبْدُ وَنُقّيَ أُذِنَ لَهُ فِي دُخُولِ الجنة .

المغني لابن قدامة

رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ – ﷺ – عَنْ النَّبِيِّ – ﷺ – قَالَ: انْتَدَبَ اللهُ مِنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ، لَا يُخْرِجُهُ إلَّا جِهَادٌ فِي سَبِيلِي، وَإِيمَانٌ بِي، وَتَصْدِيقٌ بِرَسُولِي، فَهُوَ عَلَيَّ ضَامِنٌ أَنْ أُدْخِلَهُ الجَنَّةَ، أَوْ أَرْجِعَهُ إلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ الله نَائِلًا مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ» . مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. وَلِمُسْلِمٍ: «مَثَلُ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ كَمَثَلِ الصَّائِمِ الْقَائِمِ .

وَعَنْ أَنَسٍ – ﷺ – قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِّ – ﷺ –: «لَغَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِّ أَوْ رَوْحَةٌ، خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا . رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

الجهاد فرض على الكفاية

مَسْأَلَةٌ : قَالَ: (وَالْجِهَادُ فَرْضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ، إذَا قَامَ بِهِ قَوْمٌ، سَقَطَ عَنْ الْبَاقِينَ) مَعْنَى فَرْضِ الْكِفَايَةِ الَّذِي إنْ لَمْ يَقُمْ بِهِ مَنْ يَكْفِي، أَثِمَ النَّاسُ كُلُّهُمْ، وَإِنْ قَامَ بِهِ مَنْ يَكْفِي، سَقَطَ عَنْ سَائِرِ النَّاسِ.

وَالْجِهَادُ مِنْ فُرُوضِ الْكِفَايَاتِ فِي قَوْلِ عَامَّةِ أَهْلِ الْعِلْمِ. وَحُكِيَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ، أَنَّهُ مِنْ فُرُوضِ الْأَعْيَانِ؛ لِقَوْلِ اللهِّ تَعَالَى{ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ الله} [التوبة: ٤١] ثُمَّ قَالَ: {إلا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} [التوبة: ٣٩] . وَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ} [البقرة: ٢١٦] . وَرَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ – ﷺ – أَنَّ النَّبِيَّ – ﷺ – قَالَ: " مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِالْغَزْو، مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ النِّفَاقِ ". وَلَنَا قَوْلُ اللهِّ تَعَالَى: {لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهَّ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللهُّ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلا وَعَدَ اللهُّ الْحُسْنَى} [النساء: ٩٥] . وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْقَاعِدِينَ غَيْرُ آثِمِينَ مَعَ جِهَادِ غَيْرِهِمْ، وَقَالَ اللهُّ تَعَالَى: {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا} [التوبة: ١٢٢] وَلِأَنَّ رَسُولَ الله – ﷺ – كَانَ يَبْعَثُ السَّرَايَا، وَيُقِيمُ هُوَ وَسَائِرُ أَصْحَابِهِ. فَأَمَّا الْآيَةُ الَّتِي احْتَجُوا بِهَا، فَقَدْ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: نَسَخَهَا قَوْله تَعَالَى: {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً} [التوبة: ١٢٢] . رَوَاهُ الْأَثْرَمُ وَأَبُو دَاوُد.

وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ أَرَادَ حِينَ اسْتَنْفَرَهُمْ النَّبِيُّ - ﷺ - إلَى غَزْوَةِ تَبُوكَ، وَكَانَتْ إجَابَتُهُمْ إلَى ذَلِكَ وَاجِبَةٌ عَلَيْهِمْ، وَلِذَلِكَ هَجَرَ النَّبِيُّ - ﷺ . كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ وَأَصْحَابَهُ الَّذِينَ خُلِّفُوا، حَتَّى تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ، وَكَذَلِكَ يَجِبُ عَلَى مَنْ اسْتَنْفَرَهُ الْإِمَامُ لِقَوْلِ النَّبِيِّ - ﷺ - : " إذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا ". مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ، وَمَعْنَى الْكِفَايَةِ فِي الْجِهَادِ أَنْ يَنْهَضَ لِلْجِهَادِ قَوْمٌ يَكْفُونَ فِي قِتَالِهِمْ إمَّا أَنْ يَكُونُوا جُنْدا هُمْ دَوَاوِينُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ، أَوْ يَكُونُوا قَدْ أَعَدُّوا أَنْفُسَهُمْ لَهُ تَبَرُّعًا بِحَيْثُ إذَا قَصَدَهُمْ الْعَدُوُّ حَصَلَتْ الْمَنَعَةُ بِهِمْ، وَيَكُونُ فِي الثغُورِ مَنْ يَدْفَعُ الْعَدُوَّ عَنْهَا ، وَيُبْعَثُ فِي كُلِّ سَنَةٍ جَيْشٌ يُغِيرُونَ عَلَى الْعَدُوِّ فِي بِلَادِهِمْ. وَيَتَعَيَّنُ الْجِهَادُ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ أَحَدُهَا، إذَا الْتَقَى الزَّحْفَانِ، وَتَقَابَلَ الصَّفَّانِ؛ حَرُمَ عَلَى مَنْ حَضَرَ الِانْصِرَافُ، وَتَعَيَّنَ عَلَيْهِ الْمُقَامُ؛ لِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا} [الأنفال: ٤٥] . وَقَوْلِهِ {وَاصْبِرُوا إنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [الأنفال: ٤٦] . وقَوْله تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ} [الأنفال: ١٥] {وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إلا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ} [الأنفال: ١٦]

الثَّانِي، إذَا نَزَلَ الْكُفَّارُ بِبَلَدٍ، تَعَيَّنَ عَلَى أَهْلِهِ قِتَالُهُمْ وَدَفْعُهُمْ.

الثَّالِثِ إذَا اسْتَنْفَرَ الْإِمَامُ قَوْمًا لَزِمَهُمُ النَّفِيرُ مَعَهُ؛ لِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إلَى الْأَرْضِ} [التوبة: ٣٨] . الْآيَةَ وَالَّتِي بَعْدَهَا. وَقَالَ النَّبِيُّ -ﷺ " إذَا أُسْتَنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا ".

الجهاد في سبيل الله أنواع منها ما يلي:

النوع الأول: جهاد الكفار وهو نوعان: جهاد الطلب، وجهاد الدفع.

جهاد الطلب: هو أن يغزو المسلمون الكفار في بلادهم لدعوتهم إلى الله تعالى؛ فإن أبوا قبول الدعوة والإسلام، دعوا إلى دفع الجزية، فإن أبوا فالقتال.

وجهاد الدفع هو دفع الكفار عن دخول بلاد المسلمين.

النوع الثاني: جهاد المنافقين، والمرتدين.

النوع الثالث: جهاد البغاة المعتدين الذين يخرجون على الإمام المسلم ولهم تأويل سائغ وشوكة، وفيهم منعة وقوة ، والأصل في ذلك قوله تعالى: {وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ الله فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَّ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ* إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَّ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}

قَالَ عَرْفَجَةَ سَمِعْتُ رَسُولَ الله – ﷺ – يَقُولُ « إِنَّهُ سَتَكُونُ هَنَّاتٌ وَهَنَاتٌ فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُفَرِّقَ أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَهْيَ جَمِيعٌ فَاضْرِبُوهُ بالسَّيْفِ كَائِنًا مَنْ كَانَ ». مسلم

عَنْ عَرْفَجَةَ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ الله – ﷺ – يَقُولُ « مَنْ أَتَاكُمْ وَأَمْرُكُمْ جَمِيعٌ عَلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ يُرِيدُ أَنْ يَشُقَّ عَصَاكُمْ أَوْ يُفَرِّقَ جَمَاعَتَكُمْ فَاقْتُلُوهُ . مسلم

النوع الرابع: الدفاع عن الدين والنفس والأهل والمال. ويدخل في هذا النوع جهاد قطاع الطرق

عَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ عَنِ النَّبِيِّ – ﷺ – قَالَ : « مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ أَوْ دُونَ دَمِهِ أَوْ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ ». د

عَنْ قَابُوسَ بْنِ مُخَارِقٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ الرَّجُلُ يَأْتِينِي فَيُرِيدُ مَالِي قَالَ ذَكِّرْهُ بِاللهَّ قَالَ فَإِنْ لَمْ يَذَّكَّرْ قَالَ فَاسْتَعِنْ عَلَيْهِ مَنْ حَوْلَكَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ قَالَ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ حَوْلِي أَحَدٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ قَالَ فَاسْتَعِنْ عَلَيْهِ بِالسُّلْطَانِ قَالَ فَإِنْ نَأَى السُّلْطَانُ عَنِّي وعجل عليَّ قَالَ قَاتِلْ دُونَ مَالِكَ حَتَّى تَكُونَ مِنْ شُهَدَاءِ الْآخِرَةِ أَوْ تَمْنَعَ مَالَكَ (س)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ الله – ﷺ – فَقَالَ يَا رَسُولَ الله أَرَأَيْتَ إِنْ جَاءَ رَجُلٌ يُرِيدُ أَخْذَ مَالِي قَالَ « فَلَا تُعْطِهِ مَالَكَ ». قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ قَاتَلَنِي قَالَ « قَاتِلْهُ ». قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلَنِي قَالَ « فَأَنْتَ شَهِيدٌ ». قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلْتُهُ قَالَ : هُوَ فِي النَّارِ .. صحيح مسلم

المحتويات



١٧

مذكرة في

منكرات العيد

اعداد : جمال شاهين

العيد الشرعي

العيد: واشتقاقه من عاد يعود، كأنهم عادوا إليه، وقيل: اشتقاقه من: العادة، لأنهم اعتادوه، والجمع أعياد.

قال ابنُ الأعرابي : سُمي العيد عيداً لأنه يعود كل سنة بفرح مجدد .

❍عَنْ أَنَسٍ قَالَ قَدِمَ رَسُولُ الله ﷺ الْمَدِينَةَ وَلِأَهْلِ الْمَدِينَةِ يَوْمَانِ يَلْعَبُونَ فِيهِمَا فَقَالَ قَدِمْتُ عَلَيْكُمْ وَلَكُمْ يَوْمَانِ تَلْعَبُونَ فِيهِمَا فَإِنَّ اللهَّ قَدْ أَبْدَلَكُمْ يَوْمَيْنِ خَيْرًا مِنْهُمَا يَوْمَ الْفِطْرِ وَيَوْمَ النَّحْرِ . أحمد

❍ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ دَخَلَ رَسُولُ الله – ﷺ – وَعِنْدِي جَارِيَتَانِ تُغَنِّيَانِ بِغِنَاءِ بُعَاثٍ فَاضْطَجَعَ عَلَى الْفِرَاشِ وَحَوَّلَ وَجْهَهُ فَدَخَلَ أَبُو بَكْرٍ فَانْتَهَرَنِي وَقَالَ مِزْمَارُ الشَّيْطَانِ عِنْدَ رَسُولِ الله – ﷺ – فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ رَسُولُ الله – ﷺ – فَقَالَ « دَعْهُمَا » فَلَمَّا غَفَلَ غَمَزْتُهُمَا فَخَرَجَتَا ❍ وَكَانَ يَوْمَ عِيدٍ يَلْعَبُ السُّودَانُ بِالدَّرَقِ وَالْحِرَابِ فَإِمَّا سَأَلْتُ رَسُولَ الله –ﷺ – وَإِمَّا قَالَ « تَشْتَهِينَ تَنْظُرِينَ . فَقُلْتُ نَعَمْ فَأَقَامَنِى وَرَاءَهُ خَدِّى عَلَى خَدِّهِ وَهُوَ يَقُولُ " دُونَكُمْ يَا بَنِى أَرْفَدَةَ ». حَتَّى إِذَا مَلِلْتُ قَالَ حَسْبُكِ ». قُلْتُ نَعَمْ. قَالَ « فَاذْهَبِي » .ق

❍ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ دَخَلَ أَبو بَكْرٍ وَعِنْدِي جَارِيَتَانِ مِنْ جَوَارِي الْأَنْصَارِ تُغَنِّيَانِ بِمَا تَقَاوَلَتْ الْأَنْصَارُ يَوْمَ بُعَاثَ قَالَتْ وَلَيْسَتَا بِمُغَنِّيَتَيْنِ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ أَمَزَامِيرُ الشَّيْطَانِ فِي بَيْتِ رَسُولِ الله ﷺ وَذَلِكَ فِي يَوْمِ عيد فقال رَسُولُ اللهَّ ﷺ يَا أَبَا بَكْرٍ إِنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ عِيدًا وَهَذَا عِيدُنَا .ق

❍ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ دَخَلَ عَلَيْهَا وَعِنْدَهَا جَارِيَتَانِ تَضْرِبَانِ بِدُفَّيْنِ فَانْتَهَرَهُمَا أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ دَعْهُنَّ فَإِنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ عِيدًا . أحمد

❍ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ دَخَلَ عَلَيْهَا وَرَسُولُ الله ❍ عِنْدَهَا يَوْمَ فِطْرٍ أَوْ أَضْحَى وَعِنْدَهَا جَارِيَتَانِ تَضْرِبَانِ بِدُفَّيْنِ فَانْتَهَرَهُمَا أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ دَعْنَا يَا أَبَا بَكْرٍ إِنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ عِيدًا وَإِنَّ عِيدَنَا هَذَا الْيَوْمَ . أحمد

وقال الحافظ ابن حَجَر :

وفي هذا الحديث من الفوائد مشروعية التوسعة على العيال في أيام الأعياد بأنواع يُحصل لهم بسط

النفس وترويح البدن من كلف العبادة، وأنَّ الإعراض عن ذلك أولى، وفيه أنَّ إظهار السرور في الأعياد من شعار الدين .

التَّجَمُّلِ فِيهِ

○ أَنَّ عَبْدَ اللهَّ بْنَ عُمَرَ قَالَ أَخَذَ عُمَرُ جُبَّةً مِنْ إِسْتَبْرَقٍ تُبَاعُ فِي السُّوقِ فَأَخَذَهَا فَأَتَى بِهَا رَسُولَ الله ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهَّ ابْتَعْ هَذِهِ تَجَمَّلْ بِهَا لِلْعِيدِ وَالْوُفُودِ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ إِنَّمَا هَذِهِ لِبَاسُ مَنْ لَا خَلَاقَ لَهُ فَلَبِثَ عُمَرُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَلْبَثَ ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهَّ ﷺ بِجُبَّةِ دِيبَاجٍ فَأَقْبَلَ " بِهَا عُمَرُ فَأَتَى بِهَا رَسُولَ الله ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهَّ إِنَّكَ قُلْتَ إِنَّمَا هَذِهِ لِبَاسُ مَنْ لَا خَلَاقَ لَهُ وَأَرْسَلْتَ إِلَيَّ بِهَذِهِ الْجُبَّةِ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهَّ ﷺ تَبِيعُهَا أَوْ تُصِيبُ بِهَا حَاجَتَكَ. خ

قال العلامة السندي:

علم أنَّ التجمل يوم العيد كان عادة متقررة بينهم، ولم ينكرها النبي – ﷺ – فعلم بقاؤها

وقال الحافظ ابن حجر: روى ابن أبي الدنيا والبيهقي بإسناد صحيح إلى ابن عمر: أنه كان يلبس أحسن ثيابه في العيدين

وقال أيضاً: وجه الاستدلال به من جهة تقريره – ﷺ – لِعُمَرَ على أصل التجمل للجمعة، وقَصَرَ الإنكار على لبس مثل تلك الحلة، لكونها كانت حريراً

وقال ابن قدامة في "المغني" : وهذا يدلُّ على أن التجمل عندهم في هذه المواضع " كان مشهوراً.

قال مالك: سمعتُ أهل العلم يستحبُّون الطيب والزينة في كل عيد.

وقال ابن القيم في "زاد المعاد" : وكان يلبس للخروج إليهما أجمل ثيابه، فكان له حلة يلبسها للعيدين والجمعة ومرةً كان يلبس بردين أخضرين، ومرة برداً أحمر ؛ وليس هو أحمر مُصمَتاً كما يظنُّه بعض الناس، فإنه لو كان كذلك، لم يكن برداً، وإنما فيه خُطوط حمر كالبرودِ اليمنية ...

منكرات العيد

اعلم أن السرور الذي يحصل في الأعياد، قد جعل كثيراً من الناس ينسون أو يتناسون أمور دينهم، وأحكام إسلامهم، فتراهم يرتكبون المعاصي، ويفعلون المنكرات .

أولا: التزين بحلق اللحية:

وهو الأمر الذي عليه كثير من الناس، وحلق اللحية محرم في دين الله سبحانه، دل على ذلك الأحاديث الصحيحة، التي فيها الأمر بإعفائها، إما مقروناً بعلة التشبه بالمشركين، ومِن ثَمّ مخالفتهم، أو ليس مقروناً بذلك، وهي أيضاً من الفطرة التي لا يجوز لنا تغييرها، والتنصيص على حرمة حلقها موجود في كتب المذاهب الأربعة ، فليعلم ذلك.

○ عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله – ﷺ – « خَالِفُوا الْمُشْرِكِينَ أَحْفُوا الشَّوَارِبَ وَأَوْفُوا اللِّحَى » ق . وفي لفظ : انْهَكُوا الشَّوَارِبَ وَأَعْفُوا اللِّحَى.

ثانياً: مصافحة النساء الأجنبيات غير المحرمات:

وهذا مما تعم به البلوى، ولم يَنْجُ منه إلا من رحم الله، وهو محرم، واعلم أن مصافحة النساء من غير المحارم محرمة في كل وقت لقوله عليه الصلاة والسلام :لأَنْ يُطْعَنَ فِي رَأْسِ أَحَدِكُمْ بِمِخْيَطٍ مِنْ حَدِيدٍ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمَسَّ امْرَأَةً لَا تَحِلُّ لَهُ . (طب) عن معقل بن يسار ، وهذا التحريم منصوص عليه في كتب المذاهب الأربعة ○ عن عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ – ﷺ – قَالَتْ كَانَتِ الْمُؤْمِنَاتُ إِذَا هَاجَرْنَ إِلَى رَسُولِ الله – ﷺ – يُمْتَحَنَّ بِقَوْلِ الله عَزَّ وَجَلَّ: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ) إِلَى الآيَةِ. قَالَتْ عَائِشَةُ فَمَنْ أَقَرَّ بِهَذَا مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ فَقَدْ أَقَرَّ بِالْمِحْنَةِ وَكَانَ رَسُولُ الله – ﷺ – إِذَا أَقْرَرْنَ بِذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِنَّ قَالَ لَهُنَّ رَسُولُ اللهِ –ﷺ – « انْطَلِقْنَ فَقَدْ بَايَعْتُكُنَّ ». وَلَا وَاللهِ مَا مَسَّتْ يَدُ رَسُولِ الله –ﷺ – يَدَ امْرَأَةٍ قَطُّ، غَيْرَ أَنَّهُ يُبَايِعُهُنَّ بِالْكَلَامِ – قَالَتْ عَائِشَةُ – وَاللهِ مَا أَخَذَ رَسُولُ الله – ﷺ – عَلَى النِّسَاءِ قَطُّ إِلَّا بِمَا أَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى وَمَا مَسَّتْ كَفُّ رَسُولِ الله ﷺ كَفَّ امْرَأَةٍ قَطُّ وَكَانَ يَقُولُ لَهُنَّ إِذَا أَخَذَ عَلَيْهِنَّ « قَدْ بَايَعْتُكُنَّ ». كَلَامًا. م

ثالثاً: التشبه بالكفار والغربيين:

في الملابس واستماع المعازف وغيرهما من المنكرات، فإن النبي ﷺ يقول : عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بُعِثْتُ بَيْنَ يَدَيْ السَّاعَةِ بِالسَّيْفِ حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي وَجُعِلَ الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ . حم

بعض الناس يضيعون أوقات العيد المبارك في الاجتماع على مزامير الشيطان، و آلات اللهو المحرمة .

○ قَالَ أَبُو عَامِرٍ أَوْ أَبُو مَالِكٍ الْأَشْعَرِيُّ وَاللَّهِ مَا كَذَبَنِي سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ لَيَكُونَنَّ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ يَسْتَحِلُّونَ الْخَزَّ وَالْحَرِيرَ وَالْخَمْرَ وَالْمَعَازِفَ وَلَيَنْزِلَنَّ أَقْوَامٌ إِلَى جَنْبِ عَلَمٍ يَرُوحُ عَلَيْهِمْ بِسَارِحَةٍ هُمْ يَأْتِيهِمْ يَعْنِي الْفَقِيرَ حَاجَةٍ فَيَقُولُونَ ارْجِعْ إِلَيْنَا غَدًا فَيُبَيِّتُهُمْ اللَّهُ وَيَضَعُ الْعَلَمَ وَيَمْسَخُ آخَرِينَ قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ . خ

○ عَنْ أَبِي مَالِكٍ الأَشْعَرِيِّ عَنْ رَسُولِ اللهِ – ﷺ – أَنَّهُ قَالَ : « لَيَشْرَبَنَّ أُنَاسٌ مِنْ أُمَّتِي الْخَمْرَ يُسَمُّونَهَا بِغَيْرِ اسْمِهَا وَتُضْرَبُ عَلَى رُءُوسِهِمُ الْمَعَازِفُ يَخْسِفُ اللهُ بِهِمُ الأَرْضَ وَيَجْعَلُ مِنْهُمْ قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ ». السنن الكبرى للبيهقي

رابعاً: الدخول على النساء:

○ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ – ﷺ – قَالَ « إِيَّاكُمْ وَالدُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ ». فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ يَا رَسُولَ اللهِ أَفَرَأَيْتَ الْحَمْوَ قَالَ « الْحَمْوُ الْمَوْتُ ». ق

○ عن عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ حَدَّثَهُ أَنَّ نَفَرًا مِنْ بَنِي هَاشِمٍ دَخَلُوا عَلَى أَسْمَاءَ بِنْتِ عُمَيْسٍ فَدَخَلَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ وَهِيَ تَحْتَهُ يَوْمَئِذٍ فَرَآهُمْ فَكَرِهَ ذَلِكَ فَذَكَرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ – ﷺ – وَقَالَ لَمْ أَرَ إِلا خَيْرًا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ – ﷺ – « إِنَّ اللهَ قَدْ بَرَّأَهَا مِنْ ذَلِكَ ». ثُمَّ قَامَ رَسُولُ اللهِ – ﷺ – عَلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ « لاَ يَدْخُلَنَّ رَجُلٌ بَعْدَ يَوْمِي هَذَا عَلَى مُغِيبَةٍ إِلَّا وَمَعَهُ رَجُلٌ أَوِ اثْنَانِ ». مسلم

○ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ خَطَبَنَا عُمَرُ بِالْجَابِيَةِ فَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي قُمْتُ فِيكُمْ كَمَقَامِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِينَا فَقَالَ أُوصِيكُمْ بِأَصْحَابِ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ يَفْشُو الْكَذِبُ حَتَّى يَحْلِفَ

الرَّجُلُ وَلَا يُسْتَخْلَفُ وَيَشْهَدَ الشَّاهِدُ ! وَلَا يُسْتَشْهَدُ أَلَا لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا كَانَ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ وَهُوَ مِنْ الِاثْنَيْنِ أَبْعَدُ مَنْ أَرَادَ بُحْبُوحَةَ الجنَّةِ فَلْيَلْزَمْ الجَمَاعَةَ مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَذَلِكُمْ الْمُؤْمِنُ .(ت)

خامساً: تبرج النساء، وخروجهن إلى الأسواق وغيرها:

وهذا محرم في شريعة الله، يقول الله تعالى: (وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُن وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَةِ الْأَوْلَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ) [الأحزاب: ٣٣]

○ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله – ﷺ – « صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلاَتٌ مَائِلاَتٌ رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ المائِلَةِ لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلاَ يَجِدْنَ رِيحَهَا وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا ». مسلم

○ قال عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ سَيَكُونُ فِي آخِرِ أُمَّتِي رِجَالٌ يَرْكَبُونَ عَلَى السُّرُوجِ كَأَشْبَاءِ الرِّجَالِ يَنْزِلُونَ عَلَى أَبْوَابِ الْمَسْجِدِ نِسَاؤُهُمْ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ عَلَى رُءُوسِهِمْ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْعِجَافِ الْعَنُوهُنَّ فَإِنَّهُنَّ مَلْعُونَاتٌ لَوْ كَانَتْ وَرَاءَكُمْ أُمَّةٌ مِنْ الْأُمَمِ خَدَمْنَ نِسَاؤُكُمْ نِسَاءَهُمْ كَمَا يَخْدِمْنَكُمْ نِسَاءُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ . أحمد

سادساً: الإسراف والتبذير :

فيما لا طائل تحته، ولا مصلحة فيه، ولا فائدة منه، يقول الله تعالى: (وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبّ الْمُسْرِفين) [الأنعام: ١٤١] و [الأعراف: ٣١] ويقول جل شانه: (وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً إِنَّ الْمُبَذرين كانوا إِخْوَانَ الشياطين) [الإسراء] {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ}

○ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : كُلُوا وَاشْرَبُوا وَالْبَسُوا وَتَصَدَّقُوا فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلَا مخيلَةٍ وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ كُلِّ مَا شِئْتَ وَالْبَسْ مَا شِئْتَ مَا أَخْطَأَتْكَ اثْنَتَانِ سَرَفٌ أَوْمخِيلَةٌ. خ

○ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَى مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلَاءَ . خ

○ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : " لَا تَزُولُ قَدَمَا ابْنِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ : عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ ، وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ ، وَمَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ ، وَفِيمَ أَنْفَقَهُ وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ " (ت)

○ عَنْ أَبِي بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ . (ت)

سابعا : تركُ كثير من الناس الصلاة في المسجد:

من غير عذر شرعي، واقتصار البعض على صلاة العيد دون سائر الصلوات.

ثامنا: توافد كثير من العامة على المقابر:

بعد فجر يوم العيد، تاركين صلاة العيد، متلبسين ببدعة تخصيص زيارة القبور يوم العيد ويزيدُها بعضُهم بوضع سُعْفِ النَّخْل ، وفروع الأشجار !! وكل هذا لا أصل له في السنة.

تاسعا : عدم التعاطف مع الفقراء والمساكين:

فيُظهِرُ أبناء الأغنياء السرور والفرح، ويأكلون المأكولات الشهية، يفعلون هذا كله أمام الفقراء وأبنائهم، دون شعور بالعطف أو التعاون أو المسؤولية، مع أن رسول الله ﷺ يقول: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - قَالَ « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ - أَوْ قَالَ لِجَارِهِ - مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ » . ق

عاشرا : البدع التي يفعلها كثير من المتمشيخين:

بدعوى التقرب إلى الله، أنها لا أصل لها في دين الله تعالى، وهي بدع كثيرة ، ولن أذكر منها إلا شيئاً واحداً فإن كثيراً من الخطباء والوعاظ يلهجون به، وهو التقرب إلى الله سبحانه بإحياء ليلتي العيد .

احد عشر : الشرك بالله تعالى :

بالتقرب لأصحاب القبور ودعائهم من دون الله في بعض الأمصار والبلدان،

وقد قال الله – عز وجل – : {وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ * وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصَيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}. وقال سبحانه: {قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي اللّهِ رَبِّ | الْعَالَمِينَ، لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ}.

ثاني عشر: الكبر:

بعض الناس أيام العيد يحتقر الناس ويتكبر عليهم، ويعجب بنفسه، ويختال في مشيته، وهذا محرم في جميع الأوقات، قال الله – عز وجل – : {وَلاَ تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً} وقال تعالى : {وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ الله لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} (٣). وقال تعالى: {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ}.

ثالث عشر : تشبه الرجال بالنساء:

في الملابس أو الحركات، أو الزينة أو مما هو من خصائص النساء، وتشبه النساء بالرجال كذلك

○ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمَا قَالَ لَعَنَ رَسُولُ الله ﷺ الْمُتَشَبِّهِينَ مِنْ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ وَالْمُتَشَبِّهَاتِ مِنْ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ. خ

رابع عشر : عدم صلة الأرحام :

بما يحتاجونه من مساعدات، أو زيارات، أو إحسان، أو إدخال سرور، أو غير ذلك من أنواع الإحسان

○ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ : مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ أَوْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ. ق

عناوين المذكرة


مذكرات
ثقافية
المكتبة الخاصة
٢٠٢٣